فستان العيد

النـــاشـــــر: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش.م.م)

١٢ ش الدقي - الجيزة - مصر

تليفون: ٣٧٦٢٢٨٣٢ - ٣٧٦٢٢٨٣١ - ٣٧٦٢٢٨٣٠ - ٠٠٢/٠٢/٣٧٤٨٠٧٢٩

٣٧٤٩١٣٨٨

فاكس: ٠٠٢/٠٢/٣٣٣٨٢٠٧٤

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية.

عمارة،حمدي.

فستان العيد / تأليف حمدي عمارة.-الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، ٢٠٠٩.

١٢٦ ص: ٢٣ سم.

تدمك:٩-٣٠٥-٤٥٥-٩٧٧-٩٧٨

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٣٩٤٣

١- القصص العربية القصيرة

أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠١

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش.م.م)

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩

فستان العيد

حمدي عمارة

تقديم

هذه هي المجموعة القصصية الثانية للكاتب «حمدي عمارة».. فمجموعته الأولى «هذا الصبي» والتي يتناول فيها ببراعة فنية خاصة.. عالم الطفل الخاص.. والعوالم المحيطة به، ودورها في تنشئته.. إلى جانب بعض القصص القليلة التي تتناول عوالم مختلفة. وحتى هذه المجموعة موجهة بطريقة غير مباشرة إلى الإحساس بالطفل.. ولذلك، فنحن أمام ظاهرة خاصة للأطفال.

فهو يكتب المجموعة الأولى لتبصير عالم الكبار بعالم البراءة والسعادة – عالم الطفولة – والتي ينسى الإنسان في غمرة انشغالاته المادية.. وهمومه.. هذا العالم الرحب.. فكانت المجموعة بمثابة «انظروا أيها الناس إلى ذلك العالم الجميل، سأضع أيديكم على نتائج قسوتكم وانشغالكم.. والطفل وحده المتحمل للنتائج».

ولكن الكاتب يفاجئنا في هذه المجموعة.. التي بين أيدينا – وكأنها رد فعل للأولى – بأن انتبهوا أيها الناس إلى أنفسكم، لا تنسوا أنفسكم؛ حتى لا تكونوا مثل هؤلاء.

وهؤلاء في هذه المجموعة.. هم الفئات المجتثة من أعماق المجتمع والواقع. وقد وُفِّق الكاتب في أن يغوص في أعماق شخوصه لينقل إلينا أدق أحاسيسها.. وأن يغوص في أدمغتهم ليطلعنا على مكنونها.

هذا هو عالم «حمدي عمارة» في هذه المجموعة، والذي يلقي عليه الضوء كثيفًا في هذه المرة.. ولأول مرة، تناسى

أن يكـون هدفـه الطفـل وعالمـه الثـري بالانفعـالات والعواطف كما في «صفوان البهلوان» و«حكيم الزمان» ليركز على حقبة من حياة الإنسان كثيرًا ما تكون في مرحلة عدم توازن.

وقد تناول حمدي عمارة ذلك بطريقة فنية غاية في البراعة.. بدءًا من عملية الطباعة نفسها حتى آخر مرحلة. فهو يشرف على كل خطوة. وذلك لأن كل إيماءة لها مغزًى.. مركزًا على المواقف الميلودرامية. والمواقف الأكثر قسوة والشاذة والغريبة في المجتمع؛ لأن المجتمع يحتاج إلى مأساة أشد.. وواقع أكثر إيلامًا ليفيق وينتبه.

ولا ينسى«حمدي عمارة» في غمرة هذا الكم الكبير من الأحداث.. أدواته الخاصة جدًّا. والمحببة إلى نفسه. بدءًا من البناء والتشكيل.. إلى اللغة محبوبته المفضلة. والتي لنا معها وقفة في جانب آخر.

ولا نملك إلا أن نقول: إننا أمام كاتب فذٍّ في اختيار ونسج الأحداث بلغة رصينة قوية.. متمنين له التوفيق واستمرار الإبداع.

خير سليم

* * *

الساعة السادسة

إنها أمنيته.. قد لا ترقى في نظرك إلى هذه المرتبة.. وقد تتضاءل لتبدو شيئًا تافهًا لا يستحق منك بعض نظرة.. إلا أن هذا لن يغير من الأمر شيئًا.. المسألة نسبية.. تختلف من عقل إلى عقل.. ومن طموح إلى طموح.. وقد تتغير تبعًا لظروف المرء النفسية.. والمزاجية.. والمكانية!

وقد تتحقق كليًا أو بعضها.. أو لا تتحقق بالمرة.. المهم أن تظل عائشة في الوجدان.. لا تخفت ولا تنزوي.. وأكاد أقول: أنا أتمنى.. إذن، أنا أعيش!

طوَّحتنا الأقدار إلى هذه البقعة من أرض الله الواسعة.. فهي قرية كغيرها من القرى الصحراوية.. تسوّرها مساحات شاسعة من الرمال.. والهضاب.. وتتخلّلها التلال.. كالمقابر.. والرياح لا يطيب لها السكون.. دومًا تدوِّي وتزمجر.. تعصف وتقصف.. ويسمع لها عواء!!.. والأتربة المجنونة تلسع الجفون، وتقذي العيون.. تتخلل الأطعمة، وتغشى الملابس والأغطية.. والشمس الحارقة تلهبنا.. والبرد يكسّر عظامنا.. وظلام الليل يسد أمامنا الطرق والشعب.. والعقارب الغاشمة تشهر أسلحتها، تصر على الانتقام منا!.. والصعوبات تعوق كل أمورنا.. والحنين.. الحنين لا يرحم أفئدتنا من اللوعة والاحتراق.

أمنيتنا جميعًا.. الأتوبيس.. ذلك الضيف الرزين الذي يزورنا مرة واحدة مع مغيب شمس اليوم.. وهو بالنسبة

لنا.. الحياة!.. إذ يذخر باحتياجاتنا.. وكذا أخبار القرى على طول الطريق.. إذاعة متنقلة.. يتيمة.. حيث تتأبى الإذاعات علينا.. كما يحمل صحف الصباح.. وصحف مساء البارحة.. ويُقِلُّ - أيضًا - السيد الزعيم على حد تسميتنا لـ«البوسطجي».. تلك الشخصية الآسرة.. الزائر الحبيب الذي يشرّفنا بطلعته البهية الاثنين من كل أسبوع.. أو كل أسبوعين.. حسب مزاجه!

اليوم.. الاثنين.. أحلى.. بل أهم أيام الأسبوع.. فالأيام هنا لا توصف بالحلاوة.. صدورنا تحمل شعور الفرح والقلق.. والأمل يتراءى لعيوننا.. في هذا اليوم نتناسى كل شيء.. حتى مَعِداتنا.. فنكتفي لها بعشاء الأمس!.. وتتوقف حركة الحياة.. إلا من انتظار المحتوم.

الأتوبيس.. والسيد الزعيم.. والأمنية.. الأمنية جواب.. أو رسالة غرام يفوح منها العطر.. تتلاقى الأعين.. تتحادث بلا موضوع.. مشغولون بلا شغل.. والأفواه لا تردد إلا كلمتين:

- الجوابات اليوم.. اليوم الجوابات!!

نتوق إلى ما تحمله سطور الرسائل.. مئات السطور.. وأخبار تتعدد وتتباين.. ولكلٍّ أثره وصداه.. نجأر بالشكوى.. ولمن نشكو؟!.. ليس إلا أن نتشاكى.. كل يزيح عن نفسه ما يثقل عليها.. فكلنا مطوّحون إلى هذا الوادي الجاف.. فهذا يقول في ثقة أقرب إلى الغرور:

- سيأتيني من الخطابات الكثير كما عهدتم.. وأظنها جميعًا مهمة.. وخطيرة!..

وصوت آخر يقول في توسل:

- ليتني أحظى بخطاب واحد.. من أي إنسان!

ويأتي صوت واهن كأنما يأتي من قبر:

- أعرف حظي مقدمًا.. فلن أحظى بإياها.. وكأنني بلا أهل.

ويرد عليه الواثق المغرور:

- سأعيرك إحداها.

ويضحكان!!.. وشتان بين الضحكتين.

ويداعب ثالث:

- لو كان الزعيم قريبي لأمطرني بوابل منها..

ويضحك أيضًا!!.. وتجد الابتسامة طريقها في الوجوه!!.. ليته يمضي هذا الوقت العصيب.. وتمضي لحظات من الصمت.. وتتجدد الانفعالات.. فتنطلق ضحكات بلهاء.. وهذيان.. وتأملات إلى لا شيء.. كل يعيش في عالمه الخاص.. الفراغ من حولنا.. ودخائلنا مزدحمة.. نظرت في ساعتي.. عقرب الثواني النطاط.. يتقافز كأنه في سباق!

- مهلًا أيها الشيطان.. رفقًا بالحيارى الملهوفين..

كلٌّ يذهب ويرجع على غير هدًى.. كأننا مخابيل.. دقات النطاط.. وعذاب الحيرة.. والهذيان والخيال.. الخيال يرتد إلى الوراء حيث الماضي البعيد.. كنت طفلًا..

أحس ولا أدرك.. وأبي الذي يحس ويدرك.. يذرع «الطرقة» مثلنا.. كأني أراه معنا.. يتكبد ما نتكبد.. وكتابة سوداء على باب أبيض.. تهجيت حروف كلمتيها.. «غرفة العمليات».. أمي وراء هذه اللافتة.. دخلتْ مسجاة على «نقَّالة».. وها هو أبي ينظر إليها.. حدقتاه تكاد تخرج من محجريها.. ووجهه ممتقع.. أسود عكس لون بشرته.. ووصد الباب دوننا.. وارتسم الخوف على الوجه الممتقع.. وأيضًا القلق.. وبصيص من الأمل.. أذنه جهاز استقبال تلتقط كل لفظ وهمس.. وكانت دقات قلبه أسرع من النطاط الثائر المتعجل.. جمدت عيناه على شفتي الممرضة.. وكان وجهها منديًّا بالعرق، وقد علته ابتسامة مطمئنة.. ومع ذلك، بكى أبي.. ظل يبكي.. كنت أجهل سبب البكاء.. لكني كنت أحسه.. وما كنت أدري أن الفرحة تثير البكاء وتسقط الدموع!

الساعة السادسة.. الشمس تأذن بالرحيل.. ما زال الرزين في عالم المجهول!

- لعله تأخر في إحدى القرى!

هذا ما هتف به زميلي.. الذي يعتلي المبنى.. هذا عمله كل اثنين.. جهاز استطلاع.. أو زرقاء اليمامة!.. الصدور تهتز.. القلوب تدب كأنما تعزف إيقاعًا جنائزيًّا!.. كعادة أهل هذه القرية للإعلان عن فقيد!.. وما يلبث أن يعلو الصوت المرتقب.. يتردد صداه في الصدور.. لا يخطئه

أحد.. تتقافز.. تهرول معنا القرية من كل صوب كأنه جيش من الجراد.. لون الرزين الأصفر يملأ عيوننا.. وسرعان ما نندس في الحشد الهائل.. وتشرئب الرقاب لرؤية السيد الزعيم.. أيضًا، لا أحد يخطئه فقد حفر الشوق صورته في صفحات قلوبنا.. نجري ونبحث ونفتش.. ونلتقي كل لحظة.. ونتساءل:

- أين السيد الزعيم؟!

لا بد أنه عند ذلك الجمع.. ونتسابق هنا وهناك حيث المجموعات.. ونلتقي.. وأيضًا، لم يره أحدنا.. لم يبق إلا تلك الجماعة النافرة.. أسرع أحدنا نحوها.. وسرعان ما يومئ لنا متهللًا:

- إنه هنا!!

نلحق به.. وبالفعل، نراه غير مصدقين.. لكنه لا يحمل حقيبة الرسائل!.. ويستغيث الواثق المغرور سائلًا عنها.. ويرد الرجل ببساطة وحزن:

- لقد سُرِقت الحقيبة برسائلها وطرودها.

شهقت الأفواه، وكلحت الوجوه.. ولم ينتبه أحدنا للخائب الذي أردف:

- سرقها أحدهم عندما تشاجرت مع راكب أراد أن يفتش في الحقيبة.. عبث!.. كيف يحدث؟! أليست أمانة سيحاسبني الله عليها.. فكيف أدعها لعبث العابثين.. لقد اختاروني أمينًا.. و..

زحفنا وقد افترشت الدنيا باللون الأصفر الباهـت.. والزرقة على الشفاه.. وانزوى الأمل إلى حين.. وما زلـت أردد في نفسي: أنا أتمنى.. إذن، أنا أعيش!

لقاء بعد منتصف الليل

تُطوى صحائف الأيام.. وينجلي ما كانت تخبئ.. وإذا كان الماضي شيئًا راح.. إلا أنه يؤثر في الحاضر والمستقبل المجهول.. لقاء ولقاء.. ولقاءات كثيرة.. الحب تم.. والخاتمة زواج.. تزوجتْ بغيره.. وتزوج بغيرها.. ذلك ما كانت تخبئه الأيام.. وبعد الخاتمة تبدأ الحكاية.. ولنبدأ من آخرها.. حين دفنت إحدى حلقات الماضي.. عندما ارتمى جسده بالقرب منها.

أمام سور الحديقة كانا قد وقفا:

- في الحديقة أمان.. حيث لا يوجد إنسان.. وحيث الأشجار نتوارى بين جذوعها.. وتسترنا رؤوسها عن عيون السماء.

هكذا همس لها..

ابتعدتْ قليلًا عن أنفاسه اللاهثة، بينما نظرتْ إليه مرتابة.. لم يمهلها.. قفز السور وقفزت من خلفه.. بعد لحظات، كانا بين أشجار متشابكة الأغصان.. وحيث الظلام.. لمعت عيناه.. خرج صوته مبحوحًا:

- لتقتربي مني.. ولتنامي على صدري.. ونجدد الماضي.. ونعاود الذكريات.. و..

قطع الهمسَ صوتٌ أجشُّ:

- مَن هناك؟

برقت عيناه واتسعت.. فتش عن لعابه.. همس في حنق وحسرة:

- كان عند المقابر أمان.. حيث لا يوجد إنسان..

الأحداث تتأرجح في جنبات خيالها.. منذ دقائق أو ساعات.. توقفتْ حين وقف أمام أشباح أبنية صغيرة متزاحمة.. مترامية الأطراف.

- لنجلس هنا.. بجوار هذه المقبرة.

- مقبرة؟! .. أنحن عند المقابر؟!

كاد قلبها أن ينخلع.. غشيها الفزع.. اختلستْ نظرة ناحية الأشباح الصغيرة بينما تنتفض.. هنا رفات والدها.. كأنما تراه يقوم من رقدته.. ويخرج من مقبرته والتراب يتساقط منه.. وما يلبث أن يندفع نحوها هائجًا.. يشير إليها.. ومن خلفه هياكل الموتى يتطاير الشرر من محاجرهم ومن بين أسنانهم .. تقلصت عضلات وجهها.. ندّت منها صرخة شقت السكون.. وابتعدت تتعثر.. تتخبط في أمواج الظلام.. على شفتيه بهتت الابتسامة.. هرول خلفها.. أمسك ساعدها فتحركت كوامنه.. استشعرت بعضًا من السكينة.. قال بصوت متهدج:

- لِمَ.. لِمَ صرختِ؟!

لم يعد الخفير يكرر نداءه الخشن.. لعله تأكد من خداع مسمعه.. وأيضًا، لعله يدبر أمره.. أو .. أو يكون قد غرق في سباته.. امتدت يده تتحسس شعرها.. انزلقت على جيدها.. يد غريبة!.. وإحساس غريب!.. اقتحمت صورة زوجها المكان.. التقى الماضي والحاضر.. التحما.. أربع أعين ترى.. بل عينان.. لا.. بل أربع!

دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. ليل الشتاء القارس بعيدًا عن الأفرشة الوثيرة.. وبعيدًا عن الأنفاس التي تضفي الدفء.. من فوق الفِراش انزلقتْ.. وقفتْ مبهورة الأنفاس تسمع دقات قلبها.. فزعت لسماعها.. نظرت إلى زوجها ثم إلى صغيرها.. كلاهما نائمان.. يأكلان أرزًا.. أو يشربان عسلًا.. ما أطيب طعم الأرز! وما أحلى مذاق العسل! في خوف، ابتسمت.. خطت إلى وسط الحجرة.. وقفت.. واصلت خطوها نحو الباب.. من الفِراش صدرت حركة.. زوجها يتقلب.. دب قلبها.. وقفت .. رجعت ناحية الفِراش.. في وجه زوجها حملقت.. قلبها يخفق ويخفق.. خافت أن تقلق الخفقات زوجها.. ابتعدت.. تعثرت قدمها في حذائها، فأصدرت جلبة أثلجت قلبها.. انحنت تطل في وجه زوجها.. ما زالت تطل مكان عينيه.. التقطت الحذاء.. تحت إبطها دسَّته .. في وجل، عادت ناحية الباب.. دقات قلبها تملأ أذنيها وتملأ البيت.. بل تملأ الدنيا .. وضعت راحتها على صدرها.. خرجت من الحجرة.. البرد يلفح ما عري من صدرها.. لا تشعر بالبرد.. فقط، الخوف يتغلغل في حناياها.. في الظلام واصلت خطوها.. أصابعها تستصرخ الأرض ألَّا تثير صخبها.. ببطء شديد.. بلمسة من أصابعها وعضة على ناجذيها، وانحناءة خفيفة، فتحت الباب الخارجي.. ناحية الحجرة ألقت نظرة بعينيها.. بأذنيها.. بكل جوارحها.. اتسعت ابتسامتها الخائفة.. ودَّعت المنزل.. الصقيع يلفح وجهها وصدرها.. لمت فتحة جلبابها، وانكمشت على نفسها.. فوق المنازل.. السماء بنجومها الحزينة لغياب القمر:

- ليتني ألقاه!

كان قد سبقها إلى مكان اللقاء في الأيام الخالية.. تاركًا زوجته تغط في نومها.. لم يطأ الكرى جفنيه منذ أن حط رأسه على الوسادة.. ظلت عيناه مفتوحتين خيفة أن تأخذه سِنة من النوم.. اقتربت الساعة من الواحدة.. أضاءت الفرحة جبينه .. شعر بدنو الأمل.. انقضت الساعات الثقيلة.. نفض الفراش بينما شفتاه تنفرجان عن ابتسامة ساخرة.. ماجنة.. نظر إلى زوجته النائمة.. المستسلمة.. تخيل أنها صحت، فاتسعت ابتسامته وهز رأسه:

- إنها نائمة في الخمر.. ما ألذ الخمر للنائمين!

في المكان نفسه، انتظر في قلق.. تذكر ماضيه.. سرت النشوة سريان دمائه.. لا يشعر بالرياح الهائجة.. الطبيعة ترسل أصواتًا ثائرة.. مزمجرة.. أخالها فرحة بوجوده.. وكأنما تحييه وتغبطه.. وقد خرست أصوات الأحياء إجلالًا.. ليس إلا هو الآدمي الوحيد يؤنس وحشة المكان ويمحي كآبته.

عادت تحدث نفسها:

- لا ريب أنه ينتظرني.. وأنه متلهف على رؤيتي.. مسكين يتعذب.. مثلي يفترش الأشواك.. ويحنُّ منذ سنين إلى هذا اللقاء.. كم أتوق إلى لقائه.. فيحكي عن عذابه ووحدته بعيدًا عني.. كم.. كم أشتاق لسماع صوته.

جعلتْ تعدو بين أشباح الأشياء كأرنب ضالٍّ.. تتلفت حولها مذعورة.. ضربات قدميها طبول تجلجل.. وجيب قلبها يوقظ النيام.. استوقفتها كلمات زوجها:

- عودي إلى حاضرك.. فالماضي لن يكون..

كيف تعود وحبيبها على قيد خطوات؟! شعر بدنوها.. بلى، فإنه يحفظ وقع أقدامها.. بل يميز رائحتها.. فتح طاقتي أنفه ليتنسم رائحة الماضي المحببة.. تذكر زوجته.. كم تزكم رائحتها أنفه.. بالأمس كانت تداعبه.. كم كانت تزعجه.. وها هي حبيبة الماضي.. طفرت من عينيه دمعة فرحة.. الأمل يفتح ذراعيه ليضمه في شوق.. وتهيأ كما يتهيأ العروس!

- سأمتص رحيقها.. لن أدع لزوجها قطرة واحدة.. بالأمس، كانت تتمنع وتهرب في رقة.. وتَعِد بخضوعها بعد الزواج.. وها نحن بعد الزواج.. وكيف.. كيف تلوذ بالفرار؟

الظلام من حوله.. جميل في عينيه.. اندفعت تعانقه.. يبكي وتبكي.. شتان بين دموعه ودموعها.. استمر دقائق.. سمعت الرياح تصخب وتهدر.. أفلتت منه.. سار بين النخيل الشاهقة.. قال منتشيًا:

- أحقًّا جئت؟!

تراقصت ابتسامتها الخائفة ولم تجب.. بل سمع أنفاسها ترد كأنما تأتي من أعماق بئر عميقة..

- إنني في حلم..

- بل إنها الحقيقة..

جلسا يتهامسان ويتناجيان.. لمس يدها.. أمسكها فسرتْ إليه الحرارةُ.. مرقت منه برقة.. تذكر الماضي..

تذكر وعودها.. تشبث بيدها.. نهضت حين سمعت صوت حركة.. وقف في مقابلتها.. تذكرت زوجها.. منذ يومين، انهال عليها ضربًا.. اتهمها بأنها تهذي في نومها بكلام يستحي أن يعيده.. أخفتْ وجهَها في صدره.. شدّه هذا المشهد.. تمنى لو يطول.. سمعت صوتًا آخر.. نظرت إليه فزعة.. لم يشعر بفزعها.. خطت بعيدًا عنه.. لحق بها.. قبض على يدها.. صوت الرياح يدوي من جديد.. تآبطا.. أحست بجسد غريب عنها.. ليس كزوجها.. أزاحته بعيدًا..

في الحقيقة، ضمها إلى صدره.. عبثت قدمها بأوراق الشجر الجافة.. خشخشت.. دوت طلقة نارية.. اخترقت السور المجاور.. انكفأت تخفي رأسها بين الأوراق الذابلة الساقطة.. كان الخفير يتلمس فرصة طيلة الوقت.. اقتربت يده.. لمست أصابعه فخذها.. قبض عليه.. تألمت.. قذفت بقدمها وجهه.. تشبثت يده.. ثنت رجلها.. ومرة أخرى، دفعت وجهه فتركت فخذَها يدُه.. توالت الأعيرة النارية.. لا بد أن هذه الأعيرة أيقظت زوجها.. ولعله يبحث عنها بجانبه.. وفي كل الغُرف.. اكتشف خروجها المريب.. تخيلتْ أن الخفير انقضّ عليها.. تطلعت ناحية سور الحديقة السجن.. هتف بكلمات متكسرة:

- لنقفز من فوق السور.. ولنسرع إلى مكان أكثر أمنًا..

وجهت إليه نظرة نارية.. لم تعد بندقية الخفير تخرج بارودها الحارق.. لعله ينتظر نتيجة طلقاته وعما أسفرت.. أو أنه يستعد لمحاولة أخرى.. بحسها سمعت أقدام الخفير تقترب.. فوق السور ستصبح فريسة سهلة لأعيرته.. لن يدعها تفلت.. ستُقتل لا ريب.. وقتْلها في هذا المكان والزمان فضيحة لها ولزوجها ولأهلها.. ولطفلها حين يشب.. سبحت في بحر خيالها.. أخالت نفسها وسط أهل القرية.. والكل يشير إليها في سخرية وشماتة.. زوجها بينهم.. في عينيه ذهول.. يخفي وجهه بين لحظة وأخرى.. لعله يبكي.. والنساء.. النساء يتشدقن بما يمزقها!

- ليتني ما أتيت.. لعنة الله على الماضي..

طفلها - أيضًا - يبكي وسط ذلك الجمع الهائل.. لا أحد يسمعه أو ينتبه إليه.. الجميع لا يهتمون إلا بها.. وفي شماتة يضحكون..

يد الشيطان تمتد إلى نهدها.. الخفير يدنو بحذر خطوة بعد أخرى.. بعد قليل سيمسك تلابيبها.. لمحت ابتسامته العربيدة وإصراره.. وضحكاته البلهاء الصامتة.. اختلطت الضحكات ببكاء طفلها ونحيب زوجها.. الأصابع خناجر تفقأ عينيها.. النظرات سهام تفتك بكرامتها.. زوجها يخفي وجهه حتى لا يراها.. والدها

يقوم من قبره والشرر يتطاير من محجريه.. الفضيحة هائلة هائلة!.. رمقت السور بنظرة خاطفة، وما لبثت أن قفزت كالهِرِّ.. أصبحت في لحظة خلف السور.. في الأمان.. لم يشعر بها الخفير أو يلمحها.. والدليل أنها ما زالت حيَّة .. أحست به يقفز من خلفها.. أصبح فوق السور.. طلقة نارية أخرى.. مكتومة.. أين استقرت؟!.. أين خبت؟.. جعلت تتلفت حولها.. ارتمى جسده بالقرب منها.. ما زالت يداه تبحثان عنها.. تقلصت عضلات يديه ورجليه ووجهه.. عيناه بارزتان ترسل لهيبًا مخيفًا.. وما لبث أن أرسل حشرجة غريبة، وسرعان ما ارتمت يداه وانطفأت الحياة من عينيه.. رأت الدماء من حوله.. والخفير.. أين الخفير؟ .. بكاء طفلها يختلط بحشرجات الموت.. قامت من سقطتها.. خطت.. انكفأت.. قامت ثانية.. انطلقت تسابق الريح، والطلقات تمرق من جانبها.. مرت بمكان اللقاء.. التفتت إليه في ذعر.. وقفت أمام باب المنزل.. ما زال مفتوحًا.. يستحثها بالعودة إلى الحاضر.. تطلعت إلى صفحة السماء.. اقترب الفجر.. مسحت من على خديها عَبرتين.. سمعت بكاء طفلها.. نسيت ما كان.. وهرولت إلى الداخل.. الحاضر.. ولم تعد تهذي أثناء نومها.

* * *

تجربة

أيقظه صاحبه من شروده منبِّهًا إلى دوره.. وكانت البرودة قد سرت في أوصاله، وتركزت في أطرافه.. وغشى الضباب رؤيته.. قام متحاملًا على نفسه.. شمل اللاحقين له بنظرة خائفة بين ابتسامته الخجلى.. يكاد يقول: خذوني..

التفت إلى صاحبه.. ذلك الذي انتصب بجانبه، وهمس له:

- لِمَ ترتعش هكذا؟! ادخل ولا تخف..

ثم مشجعًا:

- ادخل.. ألست رجلًا؟!

ثم بشيء من العصبية، وقد علا صوته:

- هيا.. ادخل.

تأمل الباب المغلق تطويه الحيرة.. وقد ظلَّلت محياه ابتسامة خائفة.. لا يدري.. أيطرق الباب.. أم يدخل دون استئذان.. أم..! امتدت يده بصعوبة ليمسك المقبض.. ضغطه إلى أسفل لينفتح الباب.. وصاحبه يتتبعه بعينين قلقتين.. ليتلقى منه نظرة الذاهب إلى الإعدام.. ضحك صاحبه في نفسه.. وأخيرًا، خطا الحائر خطوة إلى الداخل.. توقف ونظره إلى قدميه.. لا يعرف.. أيواصل خطاه؟.. أم.. أم يرفع رأسه.. مرت لحظات ثقيلة.. فوجئتْ به.. ألقتْ عليه نظرة بزاويتي عينيها.. التفتتْ نحوه.. علتها الدهشة!.. مرت لحظات أخرى أشد ثقلًا عليه.. فوجئ بجسدها يحتك به عندما أغلقت الباب..

صحا على صوتها الذي تصنعت فيه الرقة.. رد عليها بالصمت.. كررت.. رفع رأسه.. أخذته الدهشة.. فهي فارعة الطول.. متكورة الأجزاء.. ضخمة الصدر.. تلبس قميصًا يغطي من جسدها القليلَ.. ملطخة الوجه بصبغات متباينة.. فاقعة الألوان.. رخيصة.. دعته بإيماءة من رأسها وابتسامة دعوة.. خطا في بحر النار.. اقترب منها.. وقف.. نظر إلى نهديها أو قربتيها!.. استطاع بعد جهد أن ينظر إلى عينيها.. طالت النظرة.. ارتعشت جفونه.. أسبلها.. تلاشى بعض من خجله.. دنت منه.. ابتسمت له.. ما زالت تحمل نظرتها معنى السخرية.. ببساطة، ارتكزت بمرفقيها على كتفيه، وأحاطت وجهه بكفيها.. باعد رأسه عن أنفاسها.. رنت ضحكتها.. احمرت أذناه وأنفه.. التفت ناحية الباب المغلق.. أحس برأسه تدور.. أمسكتْ يديه.. سحبته إلى الفراش.. خلعت قميصها.. أعضاؤها متناسقة.. ولحمها طري شهي.. جذاب اللون.. جف حلقه.. اضطجعت على الفراش.. دعته.. صدع إلى أمرها.. جلس بجانبها كالمنوَّم.. انزاح عنه بعض آخر من الخجل.. أسئلة كثيرة طرحتها عليه.. أجاب وفق ما يعلم ويخبر.. إنها تجربته الأولى! كتمتْ صرخة دهشة.. شملته بنظرة خبيرة.. البضاعة ما زالت بكرًا مليئة بالخيرات.. رشفت لعابها، تلمست جسدها وتحسسته.. تأوّهتْ وتلوَّتْ وتثنتْ.. حركات غريبة!.. لكنها.. نسي نفسه.. خلع بُرقع الحياء، واختلس النظرات إلى مواضع بعينها.. اجتذبتْ عينيه.. أسَرتْها.. تحركت مشاعره.. استطاع أن يمسك راحتها..

وأن يضغط على أصابعها.. شعرت الأنثى بقوته.. دغدغتها.. نادرًا ما تصادف ذلك الصنف.. تهيجت كوامنها.. أسبلت جفونها.. شعرت برعشة يده.. تلك التي زحفت نحو صدرها.. اثنان يتناقشان بالخارج.. اختطف يده.. حاول أن ينهض.. لم تدعه يهرب.. شدته إليها.. لوتْ عنقه، وانقضت على شفتيه.. الخَدَر يسري في كل أعضائه، والنشوة تحتويه.. نسي صاحبه.. بل نسي الدنيا بأسرها.. صرخت الرجولة في أعماقه.. تجمعت في رأسه.. وانسابت إلى يديه وأصابعه؛ لتعبث وتتحسس وتضغط هنا.. وهنا.. و.. أثملته الأنوثة.. احتدت الأصوات بالخارج.. نزع نفسه من بين أحضانها..

- إنه عريض الصدر.. غزير الشعر.. إنه عملاق..

نظر إليها.. كانت عارية تمامًا.. الأنثى متجردة أمامه.. من أجله.. تتأوّه له.. تدعوه بعينيها ويديها.. وأعضاء أخرى تنتفض له.. بل تستصرخه..

طرقٌ على الباب.. تذكر أمه حين توقظه كل صباح.. لم تنسَ مرة أو يأخذها النعاس.. التفتَ ناحية الباب.. بقايا ضميره تئنّ.. صوت الأنوثة أقوى وأشد طغيانًا.. استعرتْ النيران.. والأنوثة تتضرع له.. تتوسل إليه.. فيض من أسباب اللذة ينساب تحت قدميه.

- لا تبكِ يا ضميري.. بل.. ابكِ كما يحلو لك.. فلن أنصت إليك.. وأنت يا مَن تطرق فلتغرب عني أو لتنتظر.. إنها الآن لي.. ولكم من بعدي..

تخلّص من ملابسه.. أصبح مثلها.. لم يعد للحياء مكان في أحاسيسه.. اتسعت ابتسامتها.. تدفقت الدماء

في عروقه.. تأهب.. تدفعه حمى الشباب.. فجأة، سمع صراخ طفلة.. بل سوط جاب ظهره وأدمى أذنيه.. التفت ناحية الصراخ.. أصابه الذهول.. طفل بالفعل يتقلب بين كومة من القماش.. يواصل الصراخ.. كأنه غاضب أو ثائر أو مستنكر.. برد جسده على الفور.. وهي في قمة هياجها.. عادت تجذبه.. يداه باردتان!.. وتراخ أصابه.. كان ساهمًا يرنو إلى الطفل.. وقد تبدلت كلَّ ملامحه.. واختلط وجهه بتعبيرات الألم.. شفتاه كالثلج.. لا يشعر بوجودها.. حاولت وحاولت.. فكيف تدعه يفلت.. كيف؟! أبَى جسده أن يستجيب.. انمحت رغبته.. تحول بصره عن ثدييها.. ابتعدت الأنثى وتلاشت.. حلت الأم.

- أولى بهاتين الحلمتين أن تلفَّهما شفتا الصغير الرضيع..

لبس ملابسه في التو.. لم يلتفت إليها.. هرول.. فتح الباب.. خرج من المكان وعيناه تدمعان في لوعة.. وكان قد نسي صاحبه.. ولم يكرر التجربة.

أنشودة العصفور

هـبَّ فزعًـا مـن نومـه.. جاهـد أن يلـتقط أنفاسـه المتلاحقة.. بينما لسانه ينطـق بالـشهادتين.. وبعـد قليـل، رُدَّت إليه روحه وهدأ نوعًا.. جعل يتلفت حوله يبحـث عن لا شيء.. وما زال يتمتم.. فـرك عينيـه حـين تثـاءب بـصوت مـسموع.. وضـع يمنـاه عـلى جبهتـه متأوِّهًـا.. سحبت يسراه الساعة من تحت الوسادة.. قربهـا لعينيـه.. ما زال الوقت مبكرًا! عاد بذاكرته إلى ليلة البارحة.. لقـد هجع إلى النوم في ساعة متأخرة.. إلا أنه ظل يتقلب عـلى فراشـه.. ويـستحلف النـوم أن يغـشى عينيـه.. ويتـأبَّى النوم.. ولم يدر متى أصابه الكرى.. كانت ليلة قلقة..

ويعود ليسائل نفسه عما أيقظه.. و.. وعما كان يقلقه.. لم تسعفه ذاكرته.. فأفكاره مشوشة وفي رأسه طنين.. ألقى الساعة وأبعد الغطـاء.. وقـام يجـر رجليـه إلى النافـذة.. فتحها فامتلأت الحجرة بالضياء.. أخفى عينيه بأصابعه.. وقف للحظات ينظر إلى الشارع والمارة.. احتوت راحتـه ذقنه.. وارتكز بمرفقه عـلى الحافـة وأصـابه شرود.. ظـل قليلًا هكذا.. انتفض فجأة حين تذكر شيئًا!.. لعلـه كـان سبب قلقه ويقظته على هذا النحو.. ومـا لبـث أن جـرى صوب باب الشقة.. وفتحه وقفز عـلى الـدرجات.. كـاد ينزلق لولا تشبثه بـ«الـدرابزين».. جـرى - أيـضًا - في الشارع.. دلف إلى حانوتٍ مجاورٍ وعيناه على الهـاتف.. لم يستأذن صاحبَ الحانوت الذي رماه بنظـرة غـيظ.. رفـع السماعة، وأدار القرص بيد مرتعشة.. انتظر ثـوانيَ عـدَّها

ساعات.. وَشَى وجهه الذي شحب عن رهبته.. بلع لعابه وتنحنح.. غمغم كأنما يجرب صوته.. ركز جميع انتباهه.. فشل أن يبدو متماسكًا.. رفع صدره.. ما زال صاحب المحل يحدجه بنظرات الغيظ.. أتى إلى سمعه صوت نسائي.. تنحنح وسعل.. كادت السماعة تسقط من يده المرتعشة.. خرج صوته خشنًا.. كم كان يطربه هذا الصوت كلما غنى أو دندن!

- نادي القصة.. أريد أن.. أن أستفسر منك.. أقصد من سيادتك.. عن.. عن نتيجة المسابقة..

- ...

- نعم.. مسابقة القصة القصيرة..

انتفض قلبه.. وانتفضت السماعة في يده.. وصاح قائلًا:

ظهرت.. بحق؟

- ...

ألقى السماعة بينما الصوت النسائي يردد:

- خدمة أخرى يا فندم.. آلو.. آلو؟!

- تقافز.. ولكن عاد لينقد صاحب الحانوت أجر المكالمة.. بينما الثاني يهز رأسه ويمصمص بشفتيه مستغربًا!

دخل من باب الشقة المفتوح قاصدًا الحمام.. ارتفعت عقيرته بأغنيته الوحيدة التي يترنم بها كلما تهاجم السعادة قلبه.. فتح الصُّوان.. تراءت له حُلّة المناسبات على حد تسميته.. اتسعت ابتسامته.. وانبرى يرتديها بعناية فائقة..

- غـدًا.. سـأقتني مـن الملابـس أفخرهـا وأبهاهـا وأثمنها.. و.. ألقى نظرة على مظهـره وهندامـه.. ابتـسم ابتـسامة رضـاء.. خـرج مـن بـاب الـشقة، ولم ينس أن يغلقه.. نزل الدرج متبخترًا ولسان حاله يقول:

- ليس على الأرض إلا أنا..

وقف أمـام البـاب الخـارجي ينتظـر إحـدى عربـات الأجرة..

- يجب أن أستأجر عربـة في هـذا اليـوم.. إنـه يـوم مشهود في عالم الأدب.. فلا يصح لكاتب عظـيم مـثلي أن ينحشر في وسائل المواصلات كسائر الخلق.. غدًا سـأبتاع عربة فارهة كمشاهير الكتَّاب.. أجل..أجل ..

أشـار إلى إحـداها فتوقفـت.. فـتح بابهـا بعـد عـدة محـاولات!.. جلـس في المقعـد الخلفـي رافعًـا صـدره في خيلاء.. وتعاقبـت أحلامـه.. وتتـابع شريـط الـصور في خياله.. إنه في الحفل العظيم الذي سيقام من أجل تـسلُّم الميدالية الذهبية.. ها هو صاعدًا إلى المنصة.. محيـاه مفعـم بسعادة يشوبها الخجل.. الجمهور الغفـير يـصفق مهلـلًا ومهنئًا.. إنهم يهتفون باسمه..

وقفت العربة أمام نادي القصة.. ترجل مـن العربـة.. دس في يد السائق ورقة مالية.. لم يلتفت إلى السائق الـذي رمقه في إعجاب.. واصل تخيلاته.. وقـف لحظـات أمـام البوابة الحديدية الـضخمة.. خطـا إلى الـداخل مـصطنعًا الثبات.. جعل يتلفت يمينًا ويسارًا وعـلى مرمـى البـصر والابتسامة العريضة تملأ وجهه.. وكأنه يرد على الجماهـير

التي احتشدت لاستقباله وتهنئته.. توقف.. نظر مليًّا إلى ما أخاله الصف الأمامي.. حيث يجلس عمالقة الأدب.. تخيل أنه بينهم..

غدًا تنعقد الجلسات والندوات ليناقشوا أدبه، ويعددوا أسباب نبوغه.. وفي القريب، ستزين صفحاتِ الصحف والمجلات سطورُ قلمه الذهبي.. ستهرول خلفه كل أجهزة الإعلام.. ويكون حديث الناس.. كل الناس.. اتجه إلى الدرج.. تمنى أن تكون على الحائط المجاور مرآة ليرى وجه الكاتب.. الفائز الأول.. وقف على إحدى الدرجات يعيد إصلاح حُلَّته ورباط عنقه.. مرّر راحته على شعره.. انسابت إلى أنفه رائحته العطرة.. أمال عنقه فارتفعت أنفه.. رسم على شفتيه ابتسامة ساخرة.. كما أودع التعبير نفسه عينيه.. وقف أمام باب الصرح.. دلف مبعدًا يديه عن جانبيه كأنما تأهب للتحليق في سماء الأدب.. فوق الحشود!

ألقى نظرة على اللوحة النُّحاسية المعلقة في الردهة الخارجية.. نظر بعيني خياله إلى اسمه المحفور عليها والذي يشع نورًا وبهاءً!.. جعل يتفحص أركان الردهة.. دهش فلا أحد ينتظره.. أو يهب لاستقباله! وقف قليلًا لعله يأتي أحدهم.. أطلّ في الردهة الداخلية ليجدها كمثيلتها.. بلا مستقبلين.. سعى بخطوات عصبية وعقل حائر.. دلف إلى أول حجرة صادفته.. بغضب، سأل أحد الموظفين عن نتيجة المسابقة.. لم يرد.. أو أنه فضَّل الرد عمليًّا فأخرج ملفًا كبيرًا.. أخذ يتفرس في وجه الرجل.. لسانه يلعب في فمه، وفي نفسه رغبة أن يسأله عن القصة الفائزة؛ ليريحه من عناء البحث.. وعاد إلى هذيانه:

- إنه لا يعرفني!! كيف؟! ألا يعلم أنني الفائز الأول.. أ.. أو يكون موظفًا جديدًا..

بثقة، تناول الدفتر من الموظف.. ثم جلس واضعًا إحدى ساقيه فوق الأخرى.. فتح الدفتر.. والموظف يرشقه بنظرات الاستغراب..

- قطعًا، اسمي في الصفحة الأولى.. بل على رأسها لامعًا كالبدر في ليلة ظلماء.

ألقى نظرة على الاسم الأول.. تأمله.. انتقلت حدقتاه إلى الاسم الثاني.. والثالث.. دقات قلبه تتسابق مع نقلات بصره.. اختفى القمر من الصفحة الأولى.. اختلس نظرة إلى الموظف الذي ينظر إليه في برود.. قلب الصفحة الأولى ليبحث في الثانية والشك بادٍ على صفحة وجهه.. أيضًا، لم يعثر فيها على اسمه.. ولا في الثالثة.. امتعض.. قلَّب وبحث في كل الصفحات إلا الأخيرة.. احتقن وجهه.. لمعت قطرات العرق في جبهته.. تعرجت خطوط وجهه فأضافت إلى عمره بضع سنين.. أخذ نَفَسًا عميقًا كأنما يزيح همًّا ثقيلًا.. عليه أن يبحث عن اسمه في الصفحة الأخيرة.. وبالفعل، يجده في ذيلها باهتًا.. ثلج قلبه وارتعشت أطرافه.. أخير القائمة.. آخر الكتَّاب!

ملأ الغضب جوانبه، واندفع في مجرى دمائه.. كبت ثورته في صدره.. أمسك بالدفتر المشؤوم ودفعه إلى صدر الموظف الذي امتلأ عجبًا.. ورد على إهانته بهزة من رأسه تعني الاستفهام!

خرج الأستاذ صبحي من الحجرة.. الضباب من حوله.. في عينيه وفكره.. وفي نفسه.. جرَّ رجليه جرًّا.. استمر يزحف أو يتخبط في الضباب.. التفت إلى لوحة الفائزين.. من لحظات خال اسمه يضيئها.. ولكنها تبدو كئيبة جرداء.. وسرعان ما اختفت فلم يعد يراها.. أصبح في لشارع.. ما زالت على عينيه غشاوة.. وقلبه يتقافز، وطاقتا أنفه تنفث نيرانًا.. مشى يلعن حظه.. وذلك الصرح الشامخ.. الطاغية.. وهمس في نفسه:

- ظلم.. ظلم.

جعل يهرول في سيره.. ورأسه يموج.. والعربات المتسابقة تتأرجح في عينيه.. يصطدم بالآخرين غير آبهٍ بنظراتهم النارية التي تتراشق في جسده.. وغير مهتمٍّ بتعليقاتهم الساخرة.. وجد نفسه أمام سور الأزبكية.. الكتب في كل مكان.. أكوام وتلال.. كأنها أكوام من الحجارة الصماء.. وتلال من الصخر لا يُخدش.. جعل يتأملها في دهشة.. كتب هنا ومجلدات هناك.. والعناوين الكثيرة.. اشتد اصفرار وجهه:

- لقد أفنيت أحلى سنين عمري بين صنوف الكتب.. وها هي الثمرة!!

عاد إلى منزله سيرًا على الأقدام.. في حلقه غصة، وفي داخله ثورة.. وقلبه يئن.. ضرب الباب بقدمه فاصطكّ بالحائط ليرسل فرقعة شديدة.. هرول ناحية مكتبته المتواضعة.. وقف يتأملها في احتقار.. اتسعت عيناه.. ضحكت نفسه الشيطانية.. الأمَّارة.. امتدت يده بلا وعي

تجذب الكتب وتمزقها إربًا بين صياحه وكلماته غير المفهومة.. وجعل يمزّق ويقذف في فضاء الحجرة.. فرشت الأوراق والمَزْق محتوياتها.. بدت الكتب أشلاء.. وسرعان ما أخرج علبة الثقاب وعمل في الكومة نيرانًا وحريقًا.. وقف ينظر إلى ألسنتها، والمرارة تلهب حلقه.. وسرعان ما أتت النيران على الأوراق.. وانطفأت النيران.. ولم ينطفئ حريق جسده.. ولم تهدأ نفسه.. شعر بالإعياء، فجلس يتأمل كوم الرماد.. هذا الرماد هو كل ما جناه.. وما خلفه كفاح شبابه كلاهما تافهان.

شرد الأستاذ صبحي يستعيد ماضيه.. في صباه، كان يوفر كل مصروفه.. حارمًا نفسه مما يلذ في أفواه الصبية أقرانه.. كان يلتهم اللذة كلها دفعة واحدة حين يشتري كتابًا في نهاية الشهر..

وحين يجلس لمطالعته طوال شهر كامل.. لحين أن يأتي بزاد الشهر التالي.. تعددت الكتب فحفظها في صندوق كبير من الكرتون..

وغدا الصبي شابًّا يافعًا، واختنق صندوق الكتب.. فكَّر في صنع مكتبة صغيرة من الخشب المهمل.. وبالفعل، أصبح لديه مكتبة.. إنه يذكر لياليه الطويلة التي قضاها بين الكتب.. وبين أوراقه وقلمه وأفكاره.. من أجل أمنيته محا من ذهنه فكرة الزواج.. أو إنه أجَّل موعده إلى أن يقبض على أمله.. أو أن يقطع شوطًا في طريقها الشاق.. ومن أجلها - أيضًا - نأى بنفسه عن لعب الصبية ولهو الشباب.. وعزل نفسه من أجل العلا.. ولكن، ها هو صرح العلا يتقوّض وينهار..

ظل يجترّ ذكريات ماضيه تؤنسه الدموع.. وأنين مكتوم.. يكتنفه شعور بالضياع.. وكلما وقع بصره على الرماد يتحول الأنين إلى بكاء.. وإلى صياح.. حين يستعيد بخياله طريق الجحيم الذي قطعه من نادي القصة إلى حيث يسكن.. وكان ما حدث بمثابة ستار على مستقبل غامض مظلم.. كان بالأمس طريقًا معبَّدًا تحوطه الأزاهير والأنوار.

دنا الفجر.. قام يجر ساقيه حيث فراشه.. ما زال بالقرب من الرماد.. توقف حين لمح ورقة هربت من الحريق.. ولعلها استحلفت نسمة أن تنقذها من اللهيب.. كاد يمضي تاركًا الورقة لحال سبيلها.. ولكنه أراد ألا يرحمها من الفتك.. امتدت يده إليها.. كاد يمزقها.. لكن، استوقفه العنوان.. الأمل.. كاد يقهقه ولسان حاله يقول:

- كلمة خادعة.. جرَّني سحرها.. وطعنتني في الظهر لتدعني أميد وأسقط بلا جِراك.. ولن ترحمني من ضحكاتها الساخرة.. ليس بقدرتي إلا أن أرى دمي المراق.. وأن أستشعر العذاب في كل حين..

عاد ينظر إلى الكلمة.. استمر يرنو إليها.. جعلت تكبر في عينيه وتتسع حتى احتوت رؤيته.. استند على الحائط المجاور.. قرأ السطر الأول وسطورًا أخرى قليلة..

- ما زالوا يحلفون أن الأمل طريق العلا..

انتقلت الكلمة من عينيه إلى ذهنه.. بانت آثارها على وجهه.. فخطوط الكآبة تتبدد عنه تدريجيًّا.. واللون الأحمر يسري رويدًا في صفحة وجهه.. والصفاء يزحف إلى جبهته.. والهموم تتصاعد من صدره.. تأمّل رماد كتبه.. أتى إلى سمعه صوت الأذان.. طفرت من عينيه دموع حارة.. خرج من الحجرة ومن الشقة.. صعد إلى سطح المنزل والورقة ما زالت في يده.. وقف يتأمل انبلاج الصبح أو انزواء الليل.. تلفحه نسمة هواء أزاحت من نفسه بقية همومه.. الضياء يملأ الدنيا.. الأشجار تتمايل في رقة.. والطيور تشدو.. العالم رائع.. تعمه الفرحة ويزينه الجمال.. وها هي الشمس تشرق في عالمه.. وكانت بالأمس تغرب مودعة.. وها هو عصفور صغير جميل.. يروح ويغدو بينما يشدو بأنشودة يرسلها عبر النسيم.. رآه يلقي بغصن رفيع.. ثم يجدُّ ليأتي بآخر ويضعه بجانب الأول.. إن هذا العصفور لا يلعب! إنه يعمل! يعمل ويسلي نفسه بالغناء.. إنه يبني عشًّا جديدًا.. لعل حدأة طردته من عشه.. أو أنه يبني عشًّا أكبر ليستقبل فيه صغاره.. جعل يتأمله.. العش ينمو مع العمل المتواصل.. وفجأة، اشتدت الرياح فطار العش.. كم حزن من أجل العصفور! لقد ضاع مجهوده بلا فائدة.. ويعود العصفور ليرى ما أصاب عشه.. وأيضًا، لم يسكت عن الغناء.. ولم يندب حظه.. وإنما عاد من جديد يأتي بالأغصان..

- يا سبحان الله!!

تذكر ما كان بالأمس.. سقطت من عينيه الدموع.. ثم ودّع العصفور إلى لقاء في الغد.. ونزل إلى عشه يحتضن الورقة.. الأمل.. وجلس أمام مكتبه وأمسك قلمه، وفي صفحة جديدة بيضاء.. كتب عنوان قصته الجديدة.. أنشودة العصفور..

بائعة الشهد

كانت تجهش بالبكاء داخل حجرتها.. في الخارج تسمَّر والداها من فرط الدهشة.. تبادلا نظرة استغراب وتساؤل:

- أهذه سناء؟! أهي التي تبكي؟!!

لم يذكر أحدهما أنه رآها أو سمعها تبكي.. كانت تتحكم في دموعها.. تُحجّرها في مآقيها بإرادتها.. في طفولتها، كانت تطلق لها العنان.. لتحقق رغبتها فحسب.. دومًا متحدية عنيدة.. ولكن الأمر يختلف.. السبب المباشر في طي المجهول.. الأب المحزون يحدج الأم بنظرات حانقة تحمل المرارة واللوم.. الأم زائغة العينين.. لا تحتمل لهيب النظرات اللاسع.. ولولا خجلها لبكت تحت قدمَي زوجها متوسلة.. معتذرة!

خفَّت حدة البكاء.. اعتدلت سناء من رقدتها.. تحدق في حنق إلى كسرات المرآة المتناثرة.. الكسرات تبرق كأنها تغيظها.. مكان المرآة رقعة سوداء.. تمامًا كلون الحياة التي تبدلت لرؤيتها.. أهكذا تخدعنا الحياة.. تبتسم لنا.. تدعونا فنهرع إليها ونرتمي في أحضانها.. وما إن نستشعر الدفء تكشر عن أنيابها، وتغرس فينا أشواكها.. تفتك بنا.. تقذف بنا.. تلفظنا من جنتها.. ونعود لنفتش عن السعادة في داخلنا ومن حولنا.. فنجدها قد ولَّت دون إنذار.. وتصطك بآذاننا ضحكاتها الساخرة..

هكذا، كانت تحدث سناء نفسها.. وما زالت مرارة الفشل عالقة بحلقها.. وآثار الهزيمة بادية في عينيها..

أسندت ذقنها إلى ركبتيها.. حلّقت بخيالها بعيدًا.. يا لهذا اليوم! حقًّا يا له من يوم! قبله كانت مشغولة بالآخرين وبرؤية الحياة.. وفيه أيقظت نظراتهم فكرها.. دقت أبوابًا مغلقة.. وانفرجت قليلًا لتطل في نفسها.. وفيه - أيضًا - وقفت أمام مرآتها.. تستفسرها.. تسترجع النظر إلى محط عيونهم.. تأملتها لأول مرة.. علتها الدهشة.. فلم ترها من قبل.. أو.. أو لم يكن ثمة ما يلفت نظرها.. أو أنها لم ترها بعيونهم.. تدقق النظر.. استهواها المشهد.. اشتغل ذهنها بأمر جديد.. تزنه.. تقلبه في عقلها في شوق ورهبة.. تبرز فكرة.. وإنها لفكرة!

عاشت أيامًا في مشروع فكرتها.. المشروع الهائل.. والفكرة جديدة.. لذيذة.. ملأت كيانها.. ملكت عليها فكرها.. تشوقت مشاعرها.. لم يبق غير التأهب لها، والخوض في لجّتها.. أقبل الليل.. انقضى منه شوط.. قلق يدب في قلبها.. تدعوها أمها للنوم.. رفضت بهزة من رأسها مشيرة إلى كتبها.. ما زالت حالمة.. لم تلحظ نظرة إعجاب الأم.. ولم تسمع دعوتها.. فقط، كانت تعيش في فكرتها..

عمَّ الصمت إلا من فحيح أنفاسها.. سهمت للحظات.. ابتسمت في رهبة.. فالفكرة جديدة ولذيذة.. قامت في تباطؤ لتزداد شوقًا.. أغلقت الفتحات؛ لتكون في مأمن من عيون الليل! اتجهت إلى المرآة.. وقفت على بُعد.. خطت خطوة.. قلبها يدق.. يدق.. الفكرة جديدة ولذيذة.. اتسعت ابتسامتها الخائفة.. خطت.. أصبحت أمام المرآة.. نظرت إلى نفسها.. استدارت وعادت تنظر.. مشهدان مختلفان.. تعيد الكرَّة وتقارن.. أنفاسها تتهدج.. الطبول في

قلبها تدق عالية متتالية.. المكان صمت إلا من أنفاسها.. خلعت ثوبها فحُلَّ شعرها.. أحاط وجهها وجيدها بهالة من الموج الأسود.. وامتد إلى ما بعد ظهرها.. تجردت من قميصها.. نظرت بعيونهم إلى قدها ومواطن الجمال في جسدها.. استمرت تتأمل.. تدقق وتتحقق.. تعيد النظر هنا وهنا.. عيناها مجهران.. تميل وتنظر.. تنثني وتنظر.. تنحني وتتأمل.. ترى.. وترى.. وترى.. الفكرة رائعة! مدهشة! جسدها أشد روعة! وأنفاسها لاهثة.

- إنهم لمعذورون..

لقد فُتنت هي.. فما بال الآخرين.. ما بالهم لو رأوا ما رأت.. ارتدت ملابسها على عجل لتخفي كنوزها.. استرخت.. تستعرض بخيالها قريناتها.. تجردهن من ملابسهن واحدة بعد أخرى.. علتها ابتسامة ساخرة.. واستقر في عينيها مغزًى!

رأى الصبح سناء أخرى.. بعقل يحمل أفكارًا جديدة.. ويجول في خاطرها مشروع تجربة جديدة.. خطيرة.. ارتدت ملابسها بطريقة أخرى.. مثيرة.. خرجت من حجرتها وقد بُدِّلت حالها ليلة الأمس.. ذُهل الأب.. تحمس لينهرها ويقرعها.. لكزته الأم في دلال.. وقرأ في عينيها كلامًا:

- لقد كبرت الصغيرة.. وبدت عروسًا هيفاء.. ولا ضير..

سكت الأب على مضض.. خطت سناء في دنياها الجديدة.. توقفت لتشملها بنظرة.. الأفكار تتضارب والآمال تستطيل وتبرق.. تذكرت ما تخفيه، فرفعت أنفها وصدرها.. بينما تتابع النظرات اللهفى..

- ما بالكم.. لو رأيتم ما أخفيه عن سهام عيونكم.

تتفنن في عرض مفاتنها تبعًا لتزاحم النظرات المحمومة..

- لو يرون جميعًا كنزي!.. فأحطم قلوبهم جميعًا.. وليروا كيف يكون الجمال..

لاحقتها العيون في كل مكان.. وكأنها الأنثى الوحيدة في هذا العالم.. وأنها تعرض دون رابط.. وبلا قيد أو شرط! يا له من صيد! والخبير من يسبق.. والمحظوظ من يأكل الصيد وحده..

كلٌّ يُشهر ما في جعبته ليفوز بذات الحسن.. كلٌّ نسي وعوده أو تناساها.. تبخرت العهود أمام السحر والدلال.. كلٌّ يتمنى رضاها.. ولو ذبح نفسه قربانًا.. وهي تمتلئ سرورًا وغرورًا بلعبتها.. فقد أمست الفكرة لعبة.. ولكن.. ولكنها ملّت لتنزوي الغبطة.. وتفر السعادة رويدًا.. ارتعدت.. عادت تفتش وتسائل نفسها.. آه.. يجب أن تطور اللعبة، وتضيف إليها.. عادت الابتسامة الواثقة.. الساخرة..

تمادت ووعدت.. توافدوا طالبين الوفاء.. ولا وفاء.. لأنها تلعب.. تتمتع باحتراقهم من أجلها.. تتلذذ بلوعتهن حسدًا.. نامت بملء جفونها.. واللهاف ساهرون يتعذبون.. وتعود لتجدد العهود حتى لا يقنطوا.. أسكرها خمر اللعبة.. إنهم دُمى بين أصابعها.. تحركهم أينما وكيفما تشاء وحسب هواها.. بل تستطيع أن تطأهم وتسحقهم جميعًا.. ولكن، يحلو لها لهفتهم وإن طال الزمن.. وأنّى لها أن تقنع أو تشبع! لقد تفوقت على ملكة النحل.. فذكور الملكة يموتون بعد أول لقاء.. وذكورها لا يموتون.. بل تتركهم صرعى كأعجاز نخل خاوية.. وبأقل عطاء..

كلٌّ يتمنى أن يذوق طعم الشهد.. وبائعة الشهد رائحة غادية.. تعرض ولا تبيع إلا اليسير.. بقدر ما يضمن الجذب والاستمرار.. توَّجوها ملكة.. تدابروا وتناحروا.. تناطحوا.. كلٌّ يبغي اعتلاء العرش وحده..

التجربة مبهرة.. تسير وفق إرادتها.. إلا من غمامة في سمائها.. غمامة واحدة واقفة تحجب البريق.. إنه ليس مثلهم.. اختلف عنهم جميعًا.. في البداية، عدَّته يمثل دورًا.. لكنه انبرى وتمادى.. لم ير فيها ما يراه الآخرون.. هكذا تقول عيناه.. لا تلفت نظره.. وكل ما يهبه إليها ابتسامة عابرة.. ولكنها غامضة محيرة! لم يدخل في ظنها أن تصادف مثله.. إنه شريف.. وهو طالب يدرس الفن في معقله بالكلية.. يحب أمل زميلتَه وصديقةَ سناء.. وهي تبادله الحب.. وقد باتا يعدَّان للقاء ما بعده فراق.. إلا الموت.. يلتقي بأمل أمام الجميع.. وأمامها.. ولا يحفل بها.. والكل يعرف.. والكل يبارك.. والكل يرجو النهاية السعيدة.. أغرته بشتى أسباب الإغراء.. ليرد عليها بابتسامته المعهودة.. المؤدبة.. ونظرته الغامضة.. إنه يحرق أعصابها.. يزلزل كيانها، ويسبب لها الإحباط.. فقط، كان يرى فيها أنموذجًا مكتملًا رائعًا لجسد أنثى.. وهذا سر الغموض في نظرته.

يجب أن يلحق بأقرانه في مقبرة فتنتها.. أو تكون أملُ أشدَّ منها فتنة؟!

تسري البرودة في عروقها..

- إنه مخبول مأفون.. أو إنه غرير.. أجل.. فكيف لا ينشغل بها مثلهم.. كيف؟!! ملك فكرها.. وأهملتهم.. طغى عليها الهم والغم.. وطأتهم.. سحقتهم

جميعًا، وهشمت قلوبهم.. وتفرغت له.. نعم تفرغت.. شهرت كل أسلحتها.. قالت بعينيها: إنها رهن إشارته.. وهو ثابت لا يتزحزح.. لقد أهان أنوثتها وجمالها.. كم حقدت على أمل.. وباتت متيمة به.. ولهانة.. لا ترضى بغيره بديلًا.. والمقارنة على طول الخط معقودة في خيالها..

- إنها لا تستحقه.. لا تستأهله.. إنه لي.. لي وحدي.. وهو وحده الذي يستأهل كنزي.. حتمًا سأنتصر عليها.

كل ما تأمله فرصة واحدة.. ولن تدعها تفلت من يدها.. ويأتي الفرج.. إذ تتغيب أمل.. يدق قلبها.. ويعمل فكرها استعدادًا للانقضاض.. المهم أن يأتي.. ارتجّ قلبها..

- أيكونان قد تواعدا على اللقاء؟

الدقائق تمر بطيئة.. غير محتملة.. الشوق واللوعة يجتاحان قلبها.. والحقد على أمل يملأ صدرها.. اللحظات تمضي.. لتكيل اللعنات على شريف هذا المستهتر.. الذي لا يدري أن حسناء الأرض تنتظره غير آبهة بالعيون التي تلتهمها التهامًا!

وتحدث المعجزة.. ويأتي شريف باعتداده بنفسه.. وابتسامته إياها.. كم تعذبها تلك الابتسامة.. ليقينها أنها لأمل.. فتحت بلوزتها قليلًا.. رفعت صدرها.. وابتسمت بملء وجهها.. اعترضته على أنها مصادفة.. حيّاها.. استوقفته.. أخبرته بغياب أمل.. دعته للجلوس منتهزة ارتباكه.. تردد قليلًا ثم جلس.. وضعت ساقًا على الأخرى.. استطاعت بخفتها أن تزيل سحابة الحزن من عينيه.. لقد دنت من الأمل.. والدليل أنه يسترق النظر إلى ملامحها وبعض أعضائها.. اقترب الصيد من الشَّص.. استعرضت..

بضحكة ناعمة مذيلة بآهة.. أو تنهيدة من الأعماق.. بقهقهة يهتز لها نهداها.. انحنت إلى الخلف لينحسر الثوب.. رآها عن كثب.. أجمل من أفروديت التي طالما حلم بها.. ومنّى نفسه أن يرسم صورتها ليخلّد هذا الجمال..

- إنها تفوق الـ «موناليزا» جمالًا وسحرًا.

وقفت على نقطة ضعفه.. أمنيته.. تلوح له باستعدادها لتحقيقها.. وكم تكون سعادته.. ويدعوها إلى مرسمه ولا تمانع.. واتفقا على موعد اللقاء.. والتقت عيناهما وطالت النظرة.. كلٌّ يعبر عما يجيش بصدره من سعادة.. نامت تلك الليلة.. فقد لاح النصر..

في المرسم.. أعدَّ شريف عدته.. وجعل يلف ويدور في جنباته.. وقلق لذيذ يتفشى في قلبه.. تهيأت العروس.. نثرت العطر في مواضع من جسدها.. تأملت مرآتها.. وكأنها تسألها رأيها.. ابتسمت في ثقة.. قفز وجه أمل في المرآة.. تدحرجت الابتسامة إلى زاويتي فمها في تهكم.. تختطف كتابًا بقصد التمويه على والديها.. تراقبها أربع عيون.. اثنتان مشجعتان.. معجبتان.. واثنتان قلقتان.. مشت متشية وفرحة النصر تزحف إلى صدرها.. وحين نظر شريف في ساعة يده.. كانت تطرق بابه.. قفز ليفتح لها.. كم سعدت حين قرأت انبهاره وما اعتراه.. كبتت ابتسامتها..

- إنها أجمل مَن رأيت.. بل أجمل فتيات الدنيا..

استشعرت ما يدور بخلده.. تتبختر مرفوعة الصدر والأنف، فالصيد أوشك على الوقوع.. نظرت هنا وهناك.. دارت فدار معها ثوبها.. تبدو فراشة.. دعاها للجلوس على المقعد الوحيد..

- لقد أصيب عقله.. وبعد قليل، سأمتلك قلبه ومشاعره.. ويصبح لي وحدي.. لن يستطيع مقاومة سحري.. هنا.. أستطيع أن أبلغ مرامي.. وأسحق قلبه..

في خجل.. طلب منها النظر إلى إحدى الزوايا.. ثم ذهب إلى لوحته.. تأمل وضعها.. نقل الحامل.. عاد ينظر إليها..

- لعله سيرسم وجهي!! كيف؟!

دق قلبها ودب.. سألته:

- ماذا سترسم..؟

أجاب ببساطة:

- بورتريه.

- بورتريه؟!

- أجل..

- ألن ترسم صورتي كاملة؟!

- كاملة؟! أوَلا تغضبين؟!

- إلا إذا كنت غير مدرب كفاية..

- بلى.. بلى رسمت كثيرًا.. ولكن..

- ولكن ماذا؟

- أقصد أنهن.. أنهن كن عرايا..

قالها في دفعة واحدة بينما أخفى وجهه وقلبه يدق.. لم تعلِّق.. رفع وجهه.. كم دهش لابتسامتها، وحين قالت:

- وماذا في ذلك؟.. إلا إذا كنتُ لا أروق لك..

- بالعكس.. أنت رائعة.. أقصد أنموذجًا رائعًا.. فقط، كنت أخشى أن أسبب لك الحرج.

ضحكت.. قامت لتتجرد من ملابسها حين شغل شريف نفسه بتغيير اللوحة إلى أخرى أكبر مساحة.. لم يستطع أن يتحكم في يده المرتعشة.. فوجئ بها عارية.. لم يستطع أن يبعد بصره.. طالت بينهما نظرة.. ابتعدت.. ها هو جسدها يتفجر أنوثة وإثارة.. جلست..

- إنها تفوق كل آلهة الجمال.. إنني أسعد حظًّا من دافنشي..

نبهته من شروده قائلة:

- كيف أقف؟

هز شريف رأسه.. فتح عينيه على حلمه الذي بدا حقيقة ماثلة.. متجسدة.. دنا منها.. مدَّ يده ليصلح من وقفتها.. لمست يده جسدها برغمه.. ابتسمت في خبث..

- لا بد أنه يقصد ذلك.. أو أنه يبغي إثارتها.. أو يكون جس نبض ستعقبه محاولات أخرى.. في الغد، سيتأبط ذراعي.. سيعقد الذهول دماء أمل.. ستفقد رشدها.. ولا بد أن تقع مغشيًّا عليها من هول الصدمة.. وستفيق لتجد أملها ذبيحًا.. مبعثر الأشلاء.. انبرى الفنان يرسم.. الروائح مختلطة.. رائحة الأنوثة طاغية.. ظالمة.. يقاوم ويقاوم.. يواصل بحيوية منقطعة النظير.. سألها أن تستريح.. قامت تتلوى.. ترسل تنهداتها وكهربيتها.. فاجأته سائلة:

- ألم ترسم صورة لأمل.. إنني لا أرى صورتها في مرسمك..

اندفع قائلًا:

- ولِمَ؟

شعر بأنه قد خدش حياءها.. فأضاف في ذكاء:

- إنها لا تملك مثل هذا الجسد.. وإلا لما حلمت برسم صورتك..

قالت لنفسها في لوعة:

- ليتني أعلم.. ليتني.. ولكن..

دنت من اللوحة.. لفحته بأنفاسها.. وقفت في مقابلته.. وضعت راحتها على كتفه.. ارتعشت كل أطرافه.. تلامس جزء من جسديهما فسرت النيران في دمه.. كاد يلمس ردفها.. أو.. صورة أمل تقتحم خياله.. تراجعت يده.. أبعدها برفق.. بصوت متهدج طلب منها أن تقف.. وقفت فاسحة بين ساقيها.. أشار أن تضمها..

انبرى بنشاط وسرعة وكأنه أصرَّ على أن يطرد آثار الفتنة.. احتواه ملاك الفن الأبيض.. تلاشى اللون الأحمر.. زالت الحمَّى.. نسي كل شيء إلا إحساسه بما يبدع.. يترجم صرخات الجسد.. وهي.. تدغدغها نظراته وانفعالاته.. وانشغاله كله بجسدها..

- عما قريب سيصبح أسيري.. وحبيبي.

جعلت تتفرس ملامحه.. وبالذات شفتاه المزمومتان.. كم تحنُّ إلى عناقه وقبلاته.

- استريحي قليلًا..

همست متسائلة:

- أيبقى كثير؟..

وأضافت في نفسها:

- متى تحتويك أحضاني.. متى تخضع.. متى؟!!

جعلت تتجول.. تتثنى.. تهتز أعضاؤها.. ترفع بعضها.. تتلوى.. كانت تبغي اكتساح مقاومته.. ما زال متماسكًا.. يكبح جماح رغبته، ويقبض على زمام أعصابه.. والنداءات تصم أذنيه.. ويستطيع أن ينتزع جملته..

- لتعودي .. فما بقي إلا القليل..

تلمست اللوعة في نبرات صوته.. بعد قليل، ستنتصر سيجثو أمامها.. فهو الذي اعترف.. ولكن، ليس قبل أن يخلدني في لوحته.. هكذا وعد..

استمر طويلًا هذه المرة.. كأنه نسيها.. ترفقت به.. تحملت حتى ألقى بفرشاته وتنفس بعمق.. ارتعشت شفتاها.. أغبطت نفسها بالنجاح الوشيك.. تتأمل يديه القويتين وصدره العريض المفترش بالشعر.. عوده الممشوق وصوته الخشن.. خالتْه يقول لها:

- أحببتك يا معبودتي.

طالت وقفته أمام لوحته.. لم يبق إلا اللمسات الأخيرة.. شعرت بالسأم.. سيضاف اسمها إلى قائمة الخالدين.. الصراع يجتاح رأسها.. تيار كهربي يسري في أعضائها.. تقدمت نحوه.. تفحصت ملامحه.. ليس بها ما يطمئن..! نظرت إليه في ذلة وضراعة.. وقالت بعينيها:

- أستحلفك أن ترحمني..

لم يستمع إلى دعوتها.. بل وقف يبتسم في بلاهة.. حتى هذه الابتسامة ليست لها.. ثارت وفارت.. اندفعت إليه.. حاولت أن تضمه.. أبعدها.. تتشبث به ويقاوم.. تجتذبه إليها ويعاند.. ويصمد.. في الأفق، وجه أملَ بريئًا وديعًا كعهده.. استطاع أن يفلت من براثنها.. بدت القطة نمرة تنوي افتراسه.. لقد خذل أنوثتها.. هدأت أنفاسها نوعًا.. ما زال يضحك في بلاهة وبلادة.. يغشى عينيها انكسار وقنوط.. تناولت من يده ملابسها.. الإهانة تعتصرها.. وبدا كنزها من الطين العفن.. فقد طعن كبرياءها.. ولم ينصت إلى زعقات جسدها.. عاودها بصيص الأمل.. سألته بينما تتداعى:

- هل سترسم لي صورة أخرى..؟

صمت طويلًا.. ثم عاد يهز رأسه نافيًا.. ونظر إلى صورتها ولسان حاله يقول:

- تكفي واحدة..

الطعنة قاتلة.. تمنت لو خرَّت صريعة.. غادرت المرسم.. لم تسمع كلمة توديع.. فقط، زلزلتها ابتسامة أمل الهادئة.. الواثقة.. أغلقت باب الجنة.. ومشت تجرُّ خيبتها..

في الصباح، التقت بهما متآبطين.. وقفت أمامهما منكسة الرأس.. حيَّاها كعادته وناولها كتابها الذي نسيته بالأمس.. وأثنى عليها على مسمع أمل.. لم تطق فأسرعت بالعودة إلى منزلها.. دخلت حجرتها.. أغلقت الباب في عنف بين دهشة الأبوين.. زاد من دهشتهما.. صوت تهشُّم المرآة.. وصوت بكاء.

* * *

صفقة

«الفيلا» زاخرة بشتى أسباب العز والثراء.. وهي واقعة في أرقى أحياء المدينة الكبيرة.. في إحدى قاعات الاستقبال.. صاحب الدار وفي ضيافته لفيف غير متوائم من رجال الأعمال.. ملتفون حول منضدة ضخمة، وقد تناثرت أمامهم الأوراق.. فوق المنضدة تتألق «صينية» كبيرة احتوت ألوانًا وأصنافًا من فواتح الشهية.. أي «المَزَّة».. ويبدو أنهم يخططون لصفقة.. فالأرقام طاغية على معظم حديثهم، والأصفار تتزايد.. يتبارون في اللعب بالألفاظ والمناورات والمراوغات.. تتخللها إيماءات ورموز ومصطلحات خاصة.. باستثناء أحدهم فلم يكن على شاكلتهم، وليس له في حديثهم شيء ولا في مجلسهم مأرب.. فالظروف وحدها هي التي رمت به إلى ذلك المكان.. عندما داست قدماه أرض «الفيلا».. بهرته مظاهر الأشياء.. وفي حديثهم أخذته وسائل التعبير، وأذهلته ضخامة الأرقام.. إلا أنه سرعان ما سئم هذا وذاك؛ ليشغل نفسه بالتعامل مع «المَزَّة» والمشروبات المثلجة والساخنة!

دخلت الخادمة.. الخادمة!! لكأنها سيدة الدار.. لقد اهتموا - أيضًا - بانتقاء الخادمة لتكتمل اللوحة الرائعة.. و.. كم يكون جمال السيدة؟! انحنت الخادمة لتضع «صينية» الكؤوس على المنضدة.. شعرت بعينين تفحصانها.. وبالطبع، وقفت على امتلاء ردفيها واستدارتهما.. خرجت بعد أن حددت مكان صاحبها..

مرت فترة لتأتي بـ «صينية» أخرى تحوي «مَـزَّة» جديـدة! لم يكلفها العناء لمعرفته عندما أعاد إليهـا كأسـه فارغـة.. وأفرغ في عينيها نظرة.. ردت عليها بابتسامة خفيفة.

قام صاحب الدار بنفسه ليفتح صيوانًا صغيرًا، ويخرج منه زجاجة سوداء كبيرة لوَّح بها في زهـو هاتفًـا بـصنفها وقِدمها وثمنها.. لتشع في الوجوه ابتسامة رضاء.. أفـرغ منها في كؤوس الندمان ليقذفوا به في معداتهم.. والخادمة تتردد كل حين بداع وبدونه.. ترمق صاحبنا بكل عينيها، وتخصه بأحلى ابتساماتها ليتفرغ كلية لها!

في حجرة النوم، سيدة الدار مشغولة بزينتها.. تتحدث للمرآة أكثر مما تتزين.. تُشهدها عـلى حالهـا ومـا وصـل إليه.. فشلت الأصـباغ أن تطمـس سـحابة الحـزن التـي ظللت صفحة وجهها.. ومع ذلك، واصلت تزينها في دقة فائقة! بينما تردد في أعماقها:

- يا ليت!

التفتـت نحـو مخـدعها الـوثير.. استـشعرت الـضوء الخافت الدافئ.. المثير.. ألقت نظرة على الساعة، عقـرب الثواني يتقافز في قلق.. كأنه يتمرد من أجلها.. أخرجـت تنهيدة من أعماقها.. تكاد تختنق.. قامت إلى الشرفة حيث الهواء البارد.. تنفست بعمق.. الساهرون ترتفع أصواتهم وضـحكاتهم.. تعليقـات تتبعهـا الـضحكات.. أي تعليقات! والكؤوس مـا زالـت تـترع.. عـادت تتنهـد.. وكانـت الخادمـة قـد جلـست في الـصالة بحيـث يراهـا وحده.. يتبادلان إشارات ذات مدلول.

تركت السيدة الشرفة.. فتحت باب الحجرة في ملل.. الضحكات تعقبها أخرى أشد.. كأنما تغيظها وتتحداها وتسخر منها.. لمحتها الخادمة، فأطلقت ساقيها إلى المطبخ، ووقفت تلهث من شدة الرعب.. شعرت السيدة بحركة غير عادية.. خطت في الصالة.. لمحت الكرسي فعلتها الدهشة.. وقفت تفكر للحظات.. حسبها صاحبنا الخادمة.. واصل إشاراته في حرص.. فهمت أنه لم يكن يقصدها، ومع ذلك دب قلبها!..

- تبًّا لكِ أيتها اللعينة..

واصلت خطاها حتى المطبخ.. كظمت غيظها.. تبادلت مع الخادمة سؤالًا وجوابًا.. هزت السيدة رأسها، وغمغمت بكلام غير مسموع.. لم تجرؤ الخادمة على الاستفسار.. ولتها السيدة ظهرها، وعادت أدراجها متحسسة الأرض بقدميها.. أصبحت أمام القاعة.. نظرت من زاويتي عينيها.. لمحت اضطرابه.. واصلت سيرها.. أحست بعينيه تتبعانها.. دب قلبها ثانية وأصابتها رعشة.. وقفت أمام مرآتها.. استدارت وعادت تنظر إلى المرآة ثانية.. يا لجمال ساقيها!

- لعل بصره قد وقع عليهما..

تذكرت تعليق زوجها:

- لقد حباكِ الله بساقين ما أبدعهما!! كم أغبط نفسي!

أغلقت باب الحجرة، وتعمدت أن تدع فتحة صغيرة لتتابع منها الخادمة.. تمايل السكارى قبل عقد الصفقة،

فلم تمهلهم الخمر.. إذ ثقلت ألسنتهم، وتثاقلت أحاديثهم لتدوي بلا معنى..

انتظرت الخادمة.. اطمأن قلبها حين أغلقت سيدتها الباب..

- لقد أخلدت إلى النوم كعادتها.. عهدي بها غبية.. فلم ولن تفهم شيئًا!

كتمت ضحكة.. خلعت مداسها، وخطت في حذر نحو حجرة السكارى.. ابتسمت حين وجدت المقعد مكانه:

- وهذا دليل آخر على غبائها..

اشتد وجيب قلب السيدة بينما كان يناوشها شعور غريب! أطفئ نور الصالة.. شهقت السيدة.. شعرت ببرودة أعضائها.. رأته يخرج من الحجرة.. كتمت صرخة كادت تنفلت من بين شفتيها.. تلفت يمينه ويساره.. ألقى نظرة على السكارى.. وعلى صاحب الدار.. كاد يقهقه، فقد ذهبت عقولهم أجمعين.. اندسَّ في ظلام الصالة.. هرولت السيدة إلى مخدعها.. الفراش كالثلج.. شعرت بيد تخنقها وشيء ثقيل يرتمي على صدرها..

أخفت وجهها بيديها.. وانبرت تتخيل ما يمكن أن يحدث بين خادمتها والغريب الفارع الطول.. تخيلت أشياء أخرى..

- إنه.. إنه أشد فتوة.. لا.. لا..

هزت رأسها بعنف كأنما أرادت أن تطرد فكرة من عقلها.. تذكرت حينما ضبطت الخادمة متلبسة وهي

تتلصص بالقرب من حجرة نومها.. وقد نهرتها وهددتها بالطرد إن عادت إلى ذلك مرة أخرى.. وها هي المتبجحة تفعل الفحشاء.

- و.. لكن كيف يحدث ذلك في بيتي؟! مستحيل.. مستحيل..

استدارت نحو المرآة.. أصلحت من شعرها وهندامها.. لمحت عبوسها.. حاولت أن تبدو طبيعية.. خطت في الصالة كأنما تخطو في بئر فقلبها يغوص.. ودقاته تهزها هزًّا.. سرت في جسدها رعدة.. عادت أدراجها.. داخلها يئن.. بل يصرخ.. أرسلت عيناها بريقًا مخيفًا.. خرجت بغيرة الأنثى.. هرولت في الصالة.. ولكنها التقت به عند الشعاع الخارج من حجرة السكارى.. التقت عيناهما.. غرق في عينيها.. وقرأ فيهما معاني.. أوضحها الأنوثة الهائجة.. و.. عاد يجلس في مكانه نفسه.. السكارى في غيبوبة.. انطلقت السيدة إلى المطبخ.. التقت عينا المرأتين.. ابتسمت الخادمة في نشوة.. لعقت من على شفتيها آثار اللذة.. اشتد حنق السيدة.. ولم تلبث أن أغلقت باب المطبخ، وأدارت المفتاح لتسجن الخادمة.. الصداع يكاد يفتك برأسها.. والنيران تندلع في كل جسدها.. الرغبة والظروف مهيأة.. وهي.. هي سيدة الدار.. عادت.. نسيت كل شيء إلا ما قرأته في عينيه، لقد انتظرت زوجها الهمام أن يخفَّ لنجدتها من حريقها ويطفئ لظاها.. ولم يأتِ.. لم يأتِ بالأمس.. ولا قبل ذلك.. ولا.. ولا.. كأنه لن يأتي.. وقفت تجاهه.. رأت

عينيه تلمعان كعيني الصقر.. وأسنانه - أيضًا - تلمعان بابتسامة.. إنه واثق بدعوتها له.. أشارت بأن يتبعها.. اتسعت ابتسامته.. فالأكلة دسمة.. والصيد ثمين.. ألقى على السيد الهمام نظرة.. تذكر حديثه في بداية الليلة عن الصفقة.. لعله قصد صفقته هو.. تبعها.. بحثت الخادمة عن المفتاح الآخر.. عثرت عليه بعد عناء.. فتحت الباب، أسرعت تجاه حجرة سيدتها.. لم تجد صائدها في موقعه.. اتجهت نحو مفتاح المصباح.. سمعت صوت أقدام خائفة.. فتحت المصباح، فأضاءت الصالة.. كشفت عنهما.. شهقت السيدة.. لم تستطع العودة إلى حجرتها من هول المفاجأة.. فتحت فمها لتكيل لها السباب.. لم تستطع.. خطت الخادمة حتى وقفت في مواجهة سيدتها.. تبادلت معها نظرة قاسية.. قالت الخادمة بعينيها:

- إننا سواء..

دخل صاحبنا حجرة السكارى.. فتح السيد عينيه بصعوبة بالغة اتسعت قليلًا.. وسؤال على طرف لسانه، ولا يستطيع أن يحرك لسانه به.. ورآه يحمل حقيبته وينصرف.. وقد جاء إلى سمع المرأتين صوت ارتطام الباب الخارجي.

* * *

غريب جدًّا

منذ أكثر من ساعتين و«زعتر أفندي».. قابع في صالة شقته في عتمة الليل، عيناه مفتوحتان، وبصره غير مستقر..

و«زعتر».. ليس هذا اسمه بشهادة الميلاد.. فكيف ذلك وهو مدرس اللغة العربية.. الطويل العريض.. ذو الرأس الكبير و«الكرش» المنتفخة.. وكيف لوالده الحاج «معاذ» شيخ البلد المهاب أن يسميه بذلك الاسم المثير للضحك والسخرية؟! الحقيقة أنه من اختراع الطلبة «الأشقياء» ولهم مبررهم وفق هواهم.. في البداية، كان اللقب الجديد يثير حنقه ويطلق ثائرته.. ولكن بمضي الأيام والإصرار على دعوته به لسهولته أو لغرابته.. أو لكونه مناسبًا! إذا كان لهذا أو ذلك أو تلك.. فلم يجد مناصًا من الاعتماد عليه واستساغ طعمه اللاذع..

ولو لم يأتِ «زعتر أفندي» بأعمال وتصرفات مثيرة للضحك ما ضحك منه الطلبة، وما جعلوه هدفًا لتعليقاتهم وأحابيلهم دون باقي مدرسي المدرسة.. وهو من أولئك الذين يرفضون التجديد، ويعتبرونه خروجًا عن أصول اللياقة وقواعد الأخلاق.. هذا ما يمليه عليه عقله الدائم الخصام مع كل جديد! فالقديم عنده هو العريق الأصيل.. والذي يستمد منه أسلوبه وطريقة معيشته وكيفية تعامله مع الآخرين.. ولذا، كان لا يجد نفسه ولا يشعر بكرامته إلا في إجازاته حين يزور قريته مسقط رأسه.. فهناك يستشعر العزة في احترام أهل القرية وعشيرته الذين لم يعرفوا بلقبه الجديد.

ضاق زعتر أفندي بالظلام.. قام وأضاء المصباح.. سحب جريدة الأمس.. فتحها وتأمل سطورها المتراصة.. لم يقرأ شيئًا، فقد سرح بخياله بعيدًا!.. في المدرسة.. في ذلك الفصل.. «ثالثة ثالث».. وقف أمام الباب يلوك بفمه، ويلعق بقايا الطعام من على شفتيه.. فلا يصح أن يدخل على هذه الصورة.. فجأة.. تمثل الجد إذ عقد حاجبيه وأطبق شفتيه، وتنحنح بصوته الغليظ.. ثم دخل مندفعًا وصدره إلى الأمام.. حين ضجَّ الطلبة بالضحك..

- ماذا يُضحك هؤلاء العفاريت؟!

كثيرًا ما وقف أمام المرآة بقصد اكتشاف مبعث الضحك.. لم ير شيئًا!.. لم تخبره المرآة.. بل إنه كان يبتسم حين يتأمل جسده الضخم وطوله الفائق.

- لِمَ يضحكون منه إذن؟!.. ولِمَ يقابله زملاؤه بابتساماتهم الخبيثة..؟!

لقد كره الوجوه الضاحكة.. تفزعه أصوات الضحكات.. كأنها أصوات مردة مخابيل.. الابتسامات الخبيثة سمٌّ زعاف في عسل! وضع حقيبته العتيقة فوق المنضدة.. حبك نظارته السميكة العوينات.. استمر الضحك.. وكأنه لن ينقطع.. بحركة لا إرادية وضع يده على زر طربوشه.. علا الضجيج.. بالطبع، يعلم الجميع أنه موجود في هذا الفصل.. ويعلمون على مَن يضحك الطلبة.. لو يستقيل عن عمله الكريه هذا! لكن البيت فصل آخر.. لا يؤمن أحدهم بآرائه.. ويعدونه متخلفًا.. زوجته الحضرية رائدة البيت والمهيمنة على كل صغيرة وكبيرة.. ليته تزوج من بنات قريته..

كُنَّ جميعًا يحلمن به.. لو أن الماضي يعود! وماذا يقول عنه أهل القرية إن هو استقال من عمله؟ وماذا يصنع الآن؟ كيف يخرج من مأزقه.. والطلبة لا يكفُّون.. أَيَدع الفصل ويعرِّض نفسه لتوبيخ الناظرة وكلماتها القاسية؟.. تلك الناظرة تشبه زوجته.. أو أن زوجته ناظرة البيت!

النساء جميعًا هكذا.. أو يصبُّ عليهم جامَّ غضبه؟ ولكن كيف؟.. كيف وفيهم من يفوقه طولًا وعرضًا.. وقوة؟!

- كنت في شبابي فتيًّا قويًّا.. لو.. لو يعود الشباب!

لو يعلم سبب ضحكهم وصخبهم لهان الأمر ولاستطاع معالجته.. لعن الله المرآة التي دائمًا ما تجامله.. لمح أبصارهم تلتقي على السبورة خلفه.. استدار فَعَلت الضحكات.. ارتفعت أصوات الوحوش.. خلع طربوشه وسترته فبانت كرشه أمامه ولمعت «صلعته».. تبدل الصخب مظاهرة.. هتاف بكلمات خارجة.. خَبْط على الأدراج وصفير.. بدا الفصل مسرحًا يعرض مشهدًا هزليًّا! على السبورة عبارات تمس شخصه.. رسوم كاريكاتورية تسخر منه.. التفت نحوهم.. علا صوته ينهرهم.. تلاشى صوته.. شبَّك يديه من الخلف.. جعل ينحني على الطلبة واحدًا واحدًا.. يتفرس فيهم.. لقد أراد أن يكتشف الفاعل! لم يسكت الطلبة.. ولم يسعفه فكره بتصرف ما.. فكيف.. كيف يفكر؟! في عصبية، لبس طربوشه واختطف سترته وحقيبته.. وأطلق ساقيه.. زر طربوشه يتراقص.. وكرشه تهتز.. وصل إلى حجرة الناظرة يلهث ويجأر بالشكوى بكلمات غير مفهومة.. بينما تحدجه الناظرة بنظرات ملؤها الاستخفاف..!

انتقل بخياله إلى قطار العودة.. ارتجّ صحن قلبه وبان القلق في صفحة وجهه.. القطار يزعجه مثل الطلبة.. القرية ساكنة هادئة.. مناظرها تشرح الصدور وتبعث الأمان.. بائع الصحف يتجول في القطار رغم الزحام. يدوس الأقدام.. يدفع الأجسام.. يتمايل فتتمايل معه كتلة الزحام.. الناس يكشرون.. يشيحون بأياديهم ويتفوّهون باحتجاجاتهم.. يندس البائع في كتلة أخرى رافعًا رأسه حتى لا يخنقه الزحام رافعًا صوته:

- المساء.. المساء.. اقرأ.. الابن الذي قتل أباه.. المساء.. المساء.. اقرأ..

- ما زال صوت البائع يرن في سمعه.. يرجُّه رجًّا.. تململ في مكانه.. انكمش على نفسه من شدة الخوف.. تصبب جبينه عرقًا رغم برودة الجو.. أطفأ المصباح لتنقشع الصورة.. عيناه تلمعان في الظلام.. الظلام يخيفه.. أصوات الطلبة تخيفه.. وعينا الناظرة.. وعينا زوجته.. في القرية، عيون الناس تحمل الوداعة.. نظراتهم تبعث الطمأنينة.. صوت البائع يخرس كل الأصوات.. يملأ المكان ويشق سكون الليل.. هذا الصوت يزلزله.. ينكمش على نفسه أكثر.. تكوَّر.. لو خلقه الله قنفذًا لحمته الأشواك..

- ابن يقتل أباه؟!

جعل يردد هذه العبارة، وكأنه يجهل مدلولها.. أو أنه يجتهد أن يصدق معناها.. التفت برغمه إلى حجرة ابنه.. تنقلت عيناه فيما حوله.. الجو ساكن إلا من شخير زوجته.. شخير الناظرة يزعج زوجها.. ابتسم ابتسامة بلهاء.. قام كالفأر يتحسس الأرض بأصابع قدميه.. خطا

ناحية حجرة ابنه.. كتم أنفاسه.. انحنى.. نظر من ثقب الباب.. اصطدمت عيناه بالظلام.. قرَّب أذنه.. الابتسامة البلهاء على شفتيه.. وعيناه فاغرتان مذعورتان.. فرَّ فزعًا.. التصق بالحائط المقابل.. سمع ضحكة.. ابنه يضحك منه .. ذهب إلى حجرته .. شخير زوجته يعلو.. يتأفف.. كانت لطيفة في شهر العسل وما كانت تشخر!.. جعل ينظر إلى وجهها المفلطح، وصدرها المكتظ باللحم.. عقله - أيضًا - مكتظ بالأفكار العقيمة.. القطار - أيضًا - مكتظ بالناس.. رفع يمناه..

كاد يهزها ليوقظها.. كيف؟ وهي واقعة في أغوار النوم السحيقة.. ولو صحت ستصب عليه لعناتها.. اللياقة تحتم ألا يوقظها.. وليظل وحده مع أفكاره.. وحده في المدرسة وفي القطار.. وحده يعيش في الماضي.. في ربوع القرية.. كم كان يحب لعبة الاستخفاء.. وكان لا يخشى الظلام.. بل كان يندس في العتمة ليفوز.. صوت البائع في أذنيه يرن.. يخترق الحُجُب ليؤذي مسمعه.. البائع بين الطلبة والركاب.. الجميع يثرثر.. صوت البائع يلعلع.. يطغى على الثرثرة.. الابن قتل أباه حقيقة، ولن تعيده ثرثرتهم.. ولا صراخهم ولو ملأ الآفاق.. حائط المدرسة.. السور.. الطلبة يتقافزون ويقفزون هلعين.. صوت البائع يفزعهم.. الدم الأحمر يتساقط من بين أوراق الصحف.. الدم يسيل على الأرض.. من الأرض ترتفع ألسنة اللهب.. تندلع إلى السماء.. تستطيل رقابها لعلها تستجير.. تحرق ما يصادفها.. تنتقم.. الناس يصرخون.. العرق ينتح بغزارة

من رأس «زعتر أفندي».. هرول إلى الصالة.. النيران تضيء الصالة.. مرة أخرى يخطو نحو حجرة ابنه.. وينحني على ثقب الباب.. ظل فترة.. مرت ساعة أو أكثر.. ابتعد..

- إنه نائم.. لا.. بل يصطنع النوم.. السكين تحت وسادته.. يتحين الفرصة لينقض علي.. سيذبحني.. نعم.. يفكر في قتلي منذ أيام.. بلى، فقد كان شديد القلق.. وكان حائرًا.. يروح ويغدو في هذه الصالة الملتهبة.. وكان ينظر في كتابه.. لا.. بل كان يفكر في طريقة.. يحبك خيوط مؤامرة.. يومها كان باهت الوجه.. لا بد أنه يقوم من فراشه.. يخرج السكين من تحت الوسادة.. يقبض عليها.. ها هي تلمع كأسنان الناظرة حين تبتسم ساخرة.. يخطو نحو الباب.. سيفتحه الآن.. ثم ينقضّ علي ويسفك دمي.. ويراه مُراقًا...

ابتسم في فزع.. ارتعشت كل أعضائه.. ارتخت شفته السفلى.. ترنح ناحية الباب.. سأضبطه متلبسًا، وأقبض عليه قبل أن يرتكب جريمته.. وأنقذه من حبل المشنقة.. ومن وجه عشماوي المخيف.. و.. وأنقذ نفسي.. ما أحلى الحياة! لن يرى دمائي تسيل.. لن أدعهم يثرثرون..

قفز على الغرفة دافعًا الباب برجله.. انفتح الباب، واصطك بعنف في الحائط.. وأمسك.. أمسك بالظلام.. جسده ينتفض.. يده تستميت على لا شيء.. يتحسس بيديه المتشنجتين مفتاح المصباح.. يده اليسرى تلوِّح كمروحة.. تدفع نصل السكين.. بدا الهواء ثقيلًا.. شيء

يرتمي عليه ويد حديدية تقبض على رسغه.. تعتصره.. وصوت.. أو فحيح ثعبان:

- سأقتلك.. كيف تقتحم البيت وتدخل إلى هنا؟! صرخ «زعتر أفندي».. لعلعت صرخاته.. لعله يأتي مَن يخفُّ لنجدته من بين مخالب ابنه.. وأخيرًا، عثرت يده على المفتاح.. فتحه فبدا الضوء.. فوجئ الابن الذي هتف مندهشًا:

- أأنت يا أبي..؟!! كنت أحسب.. أن..

اتسعت عينا الأب وعلا صراخه..

- أتتمادى في حبْك تمثيليتك.. أتريد قتلي؟ لقد اكتشفت مؤامرتك.. ماذا.. ماذا صنعت بك يا بني لكي تقتلني؟.. أ.. أتريد أن تصنع مثله.. لتصبح حديث الناس.. لتكون مشهورًا.. الأبناء في القرية لا يقتلون آباءهم.

- أ.. أنا.. أبدًا.. إ.. إني.. إ..

- اخرس يا ولد.. لا ترفع صوتك.. ولا تقل شيئًا.

استمر صراخه كأنما وقع في مخالب أسد.. أو كأنه كلب أصيب بعيار ناري في رأسه... استيقظ أفراد المنزل.. وبعض الجيران.. هرعوا جميعًا في حذر حيث مصدر الصراخ.. كانت دهشتهم حينما رأوا الأب ماسكًا بتلابيب ابنه.. عقدت الدهشة ألسنتهم.. الأب ما زال مسترسلًا في صراخه.. أخيرًا، جاءت الأم تتثاءب حانقة.. أتى إلى سمعها صوت الزوج:

- إنه ينوي قتلي.. ألا تصدقونني.. اقبضوا عليه.. اقبضوا عليه!

على بُعد خطوات، وقفت الزوجة تنقل بصرها بين زوجها وابنها مستغربة.. حين كان الابن يعاني الذهول.. عادت تسدد نظرة نارية إلى زوجها.. امتدت يدها إلى ملابسه فسكن عن الصراخ والعواء.. واستوت يداه إلى جانبيه وجعل يتفحص الوجوه بابتسامته البلهاء.. بينما يقهقه قائلًا:

لم أمت؟!.. مستحيل.. أين الدماء؟!.. لقد رأيتها تسيل من بين الصحف.. بالأمس قالها البائع.. أو.. أو إنه يثرثر ليروج بضاعته.. الصحف خادعة.. الجرائد تنشر الأباطيل.. والبائع ولد ماكر خبيث.. لكني.. لكن الولد هددني و.. أمسك بيدي.

الابن ينظر إلى المتفرجين.. يهز رأسه نافيًا.. ولا أحد ينطق.. كشرت الأم.. خطت نحو الصالة حيث «التليفون».. أدارت القرص بعصبية.. تبعتها ابنتها وسمعتها تقول: بسرعة يا دكتور من فضلك.. زوجي في حالة غريبة.. غريبة جدًّا!!

* * *

جرفه التيار

تعشش الفاحشة في الشقة المواجهة لشقته.. تتراءى له ما يتمخض عنها.. تتمادى في محضره غير عابئة به.. متحدية في عناد وإصرار.. تنتفخ وتتمدد وتتجدد.. وتستمر دون توقف.. شغلت كل حواسّه.. سمعه حين يأتي إليه صوت ارتطام الباب بعد زيارة طويلة أو توديع.. يتخللها ضحكات وهمس هو - بالطبع - تجديد الوعد والموعد.. وبصره حين يرى من ثقب الباب شابًّا يافعًا يتدفق حيوية.. تتقدمه ربة الفاحشة.. شبه عارية.. وكل ما فيها ينطق بالفتنة، وبالذات ردفاها اللذان يتراقصان تحت ثوبها في إغراء وإثارة.. وخياله ذلك الذي يجوس داخل الشقة ليشهد مداعبات.. عناق وقبلات.. همسات وكلمات متكسرة.. دفء يسري، وحمى تندلع في الأعضاء.. لتتلوّى من فرط الرغبة.. وسرعان ما تلتحم وتتفاعل وتهتز.. فتكف عن الصراخ..

يرى الفتى.. يدخل نضرًا مشوقًا.. واثق الخطى كالفوارس.. ليخرج فأرًا منهوكًا مهزومًا كالح الوجه.. مهرولًا في ذعر.. يتوافد الكثير.. يحتسون لحظات المتعة لقاء رحيق الشباب.. أعواد خضراء تذبل وتهزل.. تتآكل وتهون لتسقط قبل الأوان.. وما تلبث أن تجف ويذروها النسيم.. ليتبدل الجمال قبحًا.. والجنة مرتعًا للهوام.

في البداية، رشقه أهل الشارع بنظرات العتاب القاسية.. لتتحول إلى غمزات ولمزات أشد قسوة.. وهم غير ملومين..

فقد فاحت الرائحة.. وهو التقي الورع.. واعظ المسجد.. وإمام المصلين.. ولا عذر لوقوفه مكتوف اليدين..

منذ البداية - أيضًا - وصراع يؤرقه.. يتعقبه نهاره وليله.. يتحاشى النظرات التي تحاصره في كل أوان.. أصعب من الكلام.. لقد رفض الزواج واهبًا نفسه لعبادة الله.. وعاكفًا على إرشاد غيره.. كيف يواصل والفاحشة تسكن بيته.. كيف يجدد عهد العبادة مع إله الكون؟ و.. كيف يواتيه النوم؟.. كم يخشى الله.. و.. وكم يرهب نفسه!!.. وغدا الصراع على أشده.. حين كان قلبه يدق بعنف على غير عادته!

قضى ذلك اليوم بلا كلام.. لم يقم بدرسه بعد صلاة العصر.. ولم يستمع إلى تساؤلات الناس واستفساراتهم في أمور الدين والدنيا.. فقد كان بين فكي امتحان صعب.. وكأن يدًا قوية تمسك بتلابيبه، وتضغط على عنقه.. وفور إتمام آخر الصلوات اختطف مداسه، وانطلق بين دهشة المحيطين وتبادلهم نظرات الاستغراب.. قاصدًا بيته تنتابه الوساوس.. ويطل من وجدانه إحساس غريب!.. صعد الدرج.. استوقفته ضحكتها.. لكأنها تسخر منه.. كاد يرفع يديه ليسد أذنيه.. ولكنه لم يصنع!.. الانفعالات تحتشد في صدره.. دلف شقته.. صدى الضحكات يملأ مسمعه.. امتعض.. اغتاظ.. تضاغطت أضراسه.. لم يذهب للنوم.. فاليوم أمر.. لا بد أن يدرأ المنكر بيده ولسانه وقلبه دفعة واحدة.. أيضًا، لم يجلس وجعل يخرج من حجرة ليدخل أخرى.. فقد اشتعل ذهنه، واتقدت حميته.. ملّ الصمت..

الرهبة ترجُّ كيانه.. كل شيء أمامه يدور مسرعًا ليقع.. ويتكسر.. يخطو إلى الباب الخارجي.. تصطك الضحكات بأذنيه.. أسواط تهري وجهه وظهره وقفاه..

- التجربة خطيرة.. والتصدي صعب.. صعب!

صرخات تنبعث من أعماقه.. في المرآة رأى شخصًا ينبض بالفتوة.. سوى بعض خطوط تحوط عينيه وشعيرات بيضاء تناثرت في رأسه ولحيته..

وهل يرهب الناسك مثل هذه المواقف؟!.. هل يرهب مواجهة المنكر وهمزات الشياطين؟.. لا لا لا.. ولِمَ أصابته الرهبة إذن؟!..

- لو أستطيع أن أفرّ من البيت.. والوعظ.. والناس أجمعين!..

ولكن، كيف يواجه نفسه.. بل كيف يهرب من عين الله؟.. الشيطان يرقص.. تتسع ابتسامته مشجعًا.. والعقل حائر، والقلب يرتعد.. التجربة مريرة إلى أبعد الحدود.. الصداع يفتك برأسه.. وبدا مترددًا.. مهزوزًا.. ضحكاتها وضحكات الشيطان يختلطان..

- ليت الأقدار أحالت دون سكناي في ذلك الشارع وهذا البيت.. ليتها أحجمت عن طريق الشيطان!!

سمع أصوات جلبة.. أعقبها همس.. مشى ناحية باب الشقة.. وقد ثلج قلبه.. فتح الباب في سرعة أقرب إلى

عدم الهروب من الخوض في التجربة نفسها.. طأطأ الشاب رأسه خجلًا.. عاد يتأمل عاهرته تلك التي حدجت الرجل بنظرة تحدٍّ.. وقبل أن تدخل وتدفع الباب في وجهه.. أشار إليها فتوقفت.. خطا نحوها حين تسلل الشاب.. ارتعشت شفته السفلى.. تنقل بصرها بين شفتيه ولحيته وعمامته.. وعلى شكله العام.. ابتسمت.. تصبب منه العرق.. قال أخيرًا:

- لو.. لو تسمح الهانم ببضع دقائق لأمر مهم.

صمتت المرأة لحظات، بينما ارتفع حاجباها.. ثم تفوهت.. سمع صوتها كأنه يأتي من مكان قصي:

- تفضل..

تفضل!!.. أتقصد أن يدخل؟!.. لم تدع له فرصة.. فقد دخلت.. لم يجد إلا أن يتبعها.. نقل قدمه بصعوبة، وقد غاص قلبه في أحشائه.. وأشرف على البكاء.. هاجمت أنفه رائحة غريبة.. لم تكن كريهة.. كاد يأخذ شهيقًا عميقًا.. تلفت يمنة ويسرة.. اللون الأحمر يفترش الأثاث.. اصطدمت عيناه بردفيها اللذين يتراقصان تحت ثوبها.. انتقلتْ إلى ما بان من فخذيها.. ثم إلى سمانتيها البضّتين.. نظر إلى الجدران.. كلها صماء بلا ثغر على الخارج.. الرائحة تأتي رغم أنفه.. لا بد أن يتنفس.. وعيناه لا بد أن تقع على ذلك المشهد.. واللون الأحمر يشده وكأنه ينوي ابتلاعه.. دمه يغلي.. الماضي يتبخر

من ذاكرته.. غطى لحيته بيده.. لعله يبعدها عن عينيها.. أو لعله يتعلق بها خشية الانزلاق.. فهي رمز ماضيه القريب.. الباب مغلق.. لا هروب.. الشيطان يرقص من حوله، ويضحك بأعلى صوته.. شيء يحركه خلفها.. أشارت له بالجلوس.. يدها تشير إلى الفراش.. جلس دون اعتراض.. جعل يتفرس في خصلات شعرها المتهدِّلة على وجهها وكتفيها.. وعينيها اللتين تشعان سحرًا.. جيدها وخصرها وصدرها.. وعودها.. أخفى رأسه.. رنَّت ضحكتها الساخرة.. رفع وجهه ليراها والشيطان.. نظر إلى باب الحجرة المفتوح في ذلة.. لم يحرِّك ساكنًا!!

جلست بجواره.. التصقت به.. لفحته حرارتها.. وقعت عيناه على شفتيها المكتنزتين.. كأنهما ثمرتان.. وهذه ثمرة أخرى.. وتلك ثمار كثيرة.. كأنها شجرة ثمار.. ساحرة اللون، فما بالك بالطعم! نسي الناس.. نظراتِهم وغمزاتهم ولمزاتهم.. نسي الماضي.. ملأ أنفه بالرائحة الغريبة.. عبَّ منها..

- لا ضير من بعض اللحظات أتنسم فيها تلك الرائحة.. لحظات لقاء عبادة سنين.

سرق وجوده ونفسه إلى عالم آخر.. عالم ساحر وعندئذ لا لوم عليه.. أَوَ يحاسَب مَن أحاطه السحر من كل فج؟

المصلون هناك في المسجد ينتظرون.. فقد أُذِّن لصلاة الفجر.. ولم يأت! إنها أول مرة منذ أن داست قدماه أرض

الحي! انتظروا طويلًا.. وقبل أن ينبلج الصباح أمَّ الناسَ أحدُهم.. وبعد الصلاة انتشروا.. تهاجمهم عاصفة مترية تلسع صفحات وجوههم .. تحمل رائحة مميزة لا تعشقها مثل هذه الأنوف.

ليته معنا

طريق أسيوط.. الواحات الخارجة.. المسافة مائتان وستة وعشرون كيلو مترًا.. ما زلنا في بداية الرحلة.. الأتوبيس السريع ينهب الطريق الأسود.. ترامت على جانبيه مساحات شاسعة من الرمال والتلال.. المسافرون للمرة الأولى تتناقل أبصارهم في لهفة بين أجزاء الطبيعة الصحراوية.. تتراءى لهم ثلاثة ألوان لا غير.. سواد الطريق.. وصفرة الرمال.. وزرقة السماء.. تتسابق أعمدة التليفونات مع عقارب الساعة.. والأتوبيس يهتز ويتماوج، ومع حركته تدور رؤوس الركاب.. وكان الكمساري قد استرخى على أحد المقاعد.. وراح في سبات عميق.. فالمسافة طويلة.. والرحلة شاقة.. كما أن مهمته قد انتهت بعد دقائق من قيام الأتوبيس.. تاركًا الركاب يتبادلون أحاديث متباينة.. ممزقة موضوعًا وأسلوبًا.. ويحل الصمت إلا من صوت المحرك.. وسرعان ما يمل الركاب المشهد داخل العربة وخارجها.. وما يلبث أن يداعب جفونهم نوم قلق.. متقطع.. داخل الأتوبيس.. بين تلك الصحراء المقبضة والجو الحار الخانق.. انطلقت صرخة طفل.. بكسل.. فتحت أمه عينيها، وجعلت تربت عليه كي يهدأ.. ولكن أبى الطفل واستمر في صياحه، فانثنت عليه في حنان.. وأخرجت ثديها من تحت طرحتها في حرص، وألقمته حلمتها.. وأيضًا رفض الطفل.. وأبعد رأسه مواصلًا صراخه، وقدماه تضربان الهواء.. احمرّ وجه الأم، بينما تنقلت حدقتاها هنا وهناك.. وخاصة حينما تطايرت إلى سمعها تعبيرات الضيق والتأفف..

ليته يكف رحمة به وبها.. جعلت تهمس إليه بصوتها الدافئ.. لكن الطفل لم ينصت لحديث أمه.. وظل يصرخ.. اشتدت آلام الأم ولوعتها.. رنت إلى طفلها كأنما تناجيه أو تستحلفه أن يهدأ.. جعلت تداعبه فتوقفه مرة وتلوحه أخرى.. وترشوه بقبلة بلا جدوى..

صحا كل مَن في العربة.. واتجهت أنظارهم نحو الطفل وأمه، وارتسمت على وجوههم تعبيرات الغيظ.. انتظروا فترة لعله يسكت فيعاودوا نوبات نومهم.. ولم تخفت صيحات الطفل!.. واستمر وقد بحَّ صوته.. حلّ القلق محل الغيظ.. ولاح واضحًا في وجوه النساء.. لم تطق إحداهن الصبر؛ فقامت وتناولت الطفل، وجعلت تهدهده وتداعبه.. كيف يستجيب وقبلًا أبى مداعبات أمه؟

علت صرخاته واشتدت.. أيضًا، تأثر الرجال وتفوهوا بتعبيرات الرثاء.. كما صدرت منهم حركات تنم عن التوتر.. تتلاقى نظراتهم، ولا يعلمون ما يصنعون.. ليس البكاء طبيعيًّا.. صاح أحدهم قائلًا:

- لا بد أنه يشكو ألمًا في أمعائه أو معدته..

سأله آخر في ضيق:

- كيف عرفت.. أأنت طبيب؟!

- كلا.. ألا ترى كيف يتلوى؟

في حرقة رددت الأم في نفسها:

- لقد أحضرت كل لوازمه.. إلا دواء المغص.. ما كنت أعلم أن يحدث هذا.. لو.. لو أحضرت الدواء!

اندفعت تستعيد صغيرها من الراكبة التي كلَّت ولم تفلح في استعادة سكينته.. وترددت هتافات الركاب:

- ألا يوجد بالعربة دواء للمغص؟!

- ولو ملعقة صغيرة!

- لعنة الله على الصحراء!

وأخيرًا، تذكر السائق، فقال صائحًا:

- معي دواء.. معي دواء..

التفتوا جميعًا ناحيته.. والتفتت إليه الأم والأمل يتلألأ في عينيها عندما استرسل السائق:

- لكن، لا أدري إن كان للمغص أو للـ..

قفز أحد (الأفندية) إلى مقدمة العربة.. بينما أضاف السائق:

- قد اشتريته لولدي.. لعله يفيد هذا الطفل المسكين!!

وقف الأفندي يتفرس في علبة الدواء.. والأنظار كلها معلقة بشفتيه.. وأخيرًا، نطق بين هزات رأسه:

- للأسف.. إنه ليس للمغص..

انتفض قلب الأم.. وشعرت بشيء يضغط عنقها.. زاغت عيناها حين رأت سِحنة الطفل، وقد امتقع لونها.. التف جميع الركاب حول الطفل وأمه.. بأجسامهم وأنفاسهم ورعشاتهم ونبضات قلوبهم وكل جوارحهم.. كأنهم يحولون بين الطفل وشبح الموت.. وقد نسوا عناء الرحلة.. بل نسوا كل شيء إلا بكاء الطفل المتحشرج..

وصلنا منطقة النقب.. والنقب ارتفاع هائل متعرج.. مكمن الخطورة في الطريق الأسود.. الأتوبيس يقاوم.. ولأول مرة - أيضًا - ينسى الركاب أنفسهم والخطر يداهمهم.. فيتمتمون بالدعاء والتضرع إلى الله أن ينتشل الطفل من محنته فيرحم أمه.. ويرحم أعصابهم التي تحترق..

أيضًا، امتقع وجه الأم، وتغيرت ملامحه.. وأصبح يحاكي وجوه الموتى.. ندَّت منها صرخة قائلة:

- هل يبقى الكثير؟

أجاب أحد الركاب والأمل يبرق من بين نبراته:

- مضى ثلاث ساعات.. لم يبق غير ساعة واحدة..

- ساعة بأكملها.. ستون دقيقة! سيصرخ الطفل ساعة أخرى.. يا للهول!

- لعل الفرج قريب فيهدأ الطفل!

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

وانتزعت الأم من بين أسنانها هاتين الكلمتين:

- سيموت ولدي..

ثم تبدلت ملامحها واستطردت، بينما تنظر إلى الركاب معاتبة:

- طفلي يموت..

هدأ صوتها قليلًا.. وقالت في يأس:

- لو كان أبوه معنا!..

وأخذت عيناها تنتقل بين الملتفين حولها، والدموع تترقرق في مآقيها وتبلل وجهها.. وقد انتفشت خصلات شعرها.. كما نسيت ثديها الأيسر متدليًا منتفخًا.. يقطر اللبن.. كأنها دماء تتدفق من أعماق قلبها، واسترسلت:

- سيبكي الطفل ساعة أخرى.. كيف؟!

ثم ارتعشت كل أعضائها، وارتخت أطرافها.. وقبل أن تنكفئ.. اختطف أحدهم الطفل قبل أن يسقط.. وارتمت الأم فاقدة الوعي..

تعقد الأمر.. الطفل وأمه!..

- نشادر.. كولونيا للأم المسكينة..

أخرجت إحداهن قنّينة من حقيبة يدها.. وتناولت منها بإصبعها ومسحت أمام طاقتي أنفها.. ولم تفق الأم.. صاح أحدهم في ثورة:

- أيها السائق المعتوه.. لِمَ لا تسرع.. كأن العجلات لا تتحرك!

وأضاف آخر:

- أسرع أيها السائق.. ألست إنسانًا!

قال السائق في حزن شديد:

- السرعة على الرابع يا جماعة!..

ثم أضاف في لوعة:

- لو تنقلب عربتي طائرة!..

أُحبطت كل محاولات إنقاذ الأم من إغماءتها.. كما أحبطت قبلًا في إعادة السكون إلى ابنها.. وانحصرت كل

الانفعالات تبعًا لصوت (الموتور).. وفحيح الهواء الساخن.. والعربة تسابق الرياح.. علت دقات القلوب مع أنفاس الطفل اللاهثة.. وصوته المبحوح.. انهمرت الدموع حين صاح السائق والعَبرات تنزلق من عينيه:

- لم يبق إلا بضعة كيلو مترات.. اقتربنا من محطة المحاريق..

وأخذ السائق في وصفه لكل ما تقع عليه عيناه كأنما أصابه مس.. وكان عليه أن يقف في محطة المحاريق للتفتيش كما تقتضي الأوامر..

كان شرطي المرور واقفًا بجانب الطريق حين رأى الأتوبيس على بعد.. ولكن علته الدهشة.. كما أصاب الباعة المنتظرين الذهولُ.. وذلك حين رأوا الأتوبيس يفر من أمامهم.. تاركًا خلفه جبلًا من الأتربة.. أخذ الشرطي يرغي ويزبد.. ويهدد بأنه سيقلب الدنيا على رأس السائق المجنون.. بل على رأس الكمساري الذي لم يأمره بالوقوف.. بل على رأسيهما الاثنين.. فلا ريب أنهما اتفقا على تلك الفعلة الحمقاء.

أخيرًا، وقف الأتوبيس في محطة الخارجة.. بعد أن التهبت الحلوق، وبلغت القلوب الحناجر.. وكان من بين المنتظرين رجل.. جعل يتفحص وجوه النازلين من الركاب دون أن يعي ما تنطقه ملامحهم.. جاء إلى سمعه صوت صراخ غريب.. لم يلفت انتباهه.. اتسعت عيناه حينما رآهم يحملون جسدًا.. دق قلبه بعنف.. جرى يشق طريقه بين الناس.. اصطدمت عيناه بوجه زوجته

المحمولة.. انكفأ عليها باكيًا.. خبط أحدهم على كتفه، وسلمه ابنه حين صاح السائق:

- ماذا تنتظرون أيها الحمقى.. اطلبوا الإسعاف على الفور.

لم تمض دقائق وجاءت عربة الإسعاف تصرخ وتولول.. وحمل رجالها الأم وابنها.. مشى الزوج بين الناس تلاحقه عبارات الإشفاق.. صعد عربة الإسعاف بين ذهوله، وجلس بجانب زوجته المسجاة.. جعل يتأمل ولده الذي يراه لأول مرة، ولسان حاله يقول:

- أهكذا يكون لقاؤنا الأول! ليته ما كان.. كنت.. كنت أعد اللحظات..

ألقى نظرة على زوجته، واستطرد يقول بعينيه:

- لا بد أنك أنهكتَ أمك.. وسببت لها الضيق والحرج.. وهأنت ذا تبكي حزنًا عليها.. وقد بُحّ صوتك من شدة البكاء..

ثم أردف في بلاهة:

- أوَ تنظر إلي.. ألا تعرفني؟! لو تنظر في المرآة لعرفت من أنا..

وقفت العربة أمام باب المستشفى.. نُقلت الأم وطفلها إلى حجرة الطبيب.. تبعهم الزوج، وقد انحنى كعجوز طحنته السنون.. نظر الطبيب إلى الزوجة.. ثم اتجه إلى الطفل، وانهمك في إسعافه.. وبعد لحظات، سكت الطفل.. ثم وقف الطبيب أمام جسد الزوجة.. التقت عينا الزوج والطبيب الذي تساءل:

- أأنت زوجها؟

أجاب الزوج في وجل:

- نعم.. ووالد الطفل..

- صرخ الطبيب فجأة قائلًا:

- ولِمَ انتظرت كل هذا الوقت؟ كاد الطفل يفارق الحياة..

استراح قلب الزوج قليلًا.. وبعد برهة، لعب لسانه في فمه، ثم قال في تردد:

- و.. والأم يا دكتور؟

أشاح الطبيب بوجهه ليخفي عَبْرة، ثم قال بصوت مختنق:

- للأسف.. ماتت منذ أكثر من ساعة..

عقد الجزع لسان الزوج.. ثم هتف غير مصدق:

- ماتت!!

ثم صرخ في جنون:

- مستحيل يا دكتور.. مستحيل!!

وانفجر الرجل يبكي.. وأطلق الطبيب لدموعه العنان.. ولم يدم المشهد طويلًا حين ارتفع صوت الطفل.. عندئذ رفع الأب وجهه الذي بهت وشحب.. وقف.. خطا بخطوات وئيدة نحو ابنه.. حمله في حنان.. وقف أمام جثمان زوجته.. والدموع قد غشيت كل وجهه.. نقّل بصره بين جثمان الأم والابن.. عاد ينظر إلى زوجته الراحلة، بينما تقول عيناه بصدق:

- من أجلكِ..سأعتني بالوليد..أحب وأبقى ذكرى..

* * *

فستان العيد

جو الحجرة مزدحم بالذكريات.. يكتظ بالمعاني كأعماق فنان.. الأم الشابة قابعة في أحد الأركان.. منظرها يثير المشاعر ويهيج الوجدان.. الشجن معشش في محياها يزيده جمالًا وفتنة.. عيناها دامعتان.. شاخصتان إلى القعيدة.. النائمة على فخذها.. ذبالة المصباح تتراقص في عصبية كأنها تحتج على وقودها الذي أشرف على النفاد.. السكون مخيم.. والأم ساهرة وحدها مع الليل.. فقد بكّر الناس إلى نومهم ليصحوا مع أول خيوط النهار.. فغدًا يوم العيد.. والليلة ليلة العيد.. أيضًا.. الأم وحيدة مع كروبها وذكريات ماضيها وحالها.. وترى بعيني خيالها الفرحة بادية في وجوه الأطفال.. منذ فترة يحلمون.. والليلة يواصلون أحلامهم التي تتحقق بعد ساعات.. قلوبهم الصغيرة ترقص من فرط النشوة.. ثغاء العنزة يمزق حجاب السكون.. ويقطع نياط قلبها.. فالوقت موعد إياب زوجها والد الكسيحة النائمة.. ولن يعود الليلة.. ولن يعود أبدًا.. تطلعت ناحية الباب المواربة.. علتها ابتسامة باهتة من خلال دموعها.. ما زالت العَبرات تنزلق على خديها.. مسحتها خشية أن تسقط على وجه الصغيرة فتلسعها وتؤرقها.. وتوقف أحلامها.. لعلها تعيش حلمًا سعيدًا كأقرانها.. أوَليس العيد للناس وللأطفال أجمعين؟ الأب ها هو يتساءل في لهفة عن ابنته كعادته كل غدو ورواح.. ينظر من زاويتي عينيه إلى نصفها الأشل.. ولا يفلح في أن يخفي تعبيرات الألم والحسرة.

منذ أسابيع والصغار يعدون مبعث فخارهم من الجديد الجميل.. في الصباح ستختال العذارى ويخطرن.. يتسابقن فتهفهف فساتينهن.. كفراشات الجنة تروح وتغدو.. وتعدو بين الخمائل والأزاهير.. تتطاير ضفائرهن.. تتأرجح.. تتراقص معبرة عن أقصى درجات السعادة.

صوت آخر يمزق السكون.. إنه الفأر أنيسها.. يقرض ولا تلتفت إليه.. خليط من الصور تتدفق في مخيلتها.. ها هو الأب يجلس تحت قدمي ابنته.. يبذل جهدًا ليكبت آلامه النفسية.. وها هي الصغيرة.. تنقل بصرها في دعة بين والديها.. الحزن يزيدها جمالًا كأمها.. على وجهها تتآلف الدهشة مع الأحزان.. ما زالت أذنها تطن بوصية الوداع.. وما زالت تشخص إلى وديعة راحلها.. في هذه المرة، انفلتت دموعها لتسقط على وجنة الصغيرة.. صحت من شرودها على حركتها الواهنة.. لملمت شعرها الفاحم حول وجهها الملائكي.. لو انطفأ المصباح لأضاء وجه ابنتها القمر! إنه يضيء قلبها، فكيف لا ينير الدنيا بأسرها.. إنها الذكرى اليتيمة للزوج الفقيد.. غدًا تتناثر بسمات الصغار كالزهور.. والفراشات تتطاير ذيول فساتينهن.. كلٌّ يبدو سعيدًا بهيجًا.. حتى العصافير ستشدو فرحة بقدوم العيد.. ولا دليل على العيد في بيتهما.. وفي قلبيهما.. بل قلب الصغيرة الغضّ.

- ليتني بعت قرطي.. وابتعت لها فستانًا!

في صفحة الوجه البريء قرأت طفولتها.. تذكرت العيد أيامها.. كانت كل السعادة تتزاحم في قلبها..

وكانت تتمنى أن يمتد العيد يومًا آخر.. علمت بعدئذ أن للعيد أيامًا.. وأن عيد الفقراء يوم.. واحد.. يتيم!

في الغد.. والغد قريب.. سترفل الصغيرات في أثوابهن الزاهيـة.. وأحـذيتهن اللامعـة.. سـتعقص أمهـاتهن شعورهن بأشرطة جذابة الألوان.. ما زالـت تتأمـل محيَّـا ابنتها.. كم أحبها الراحل الحبيب!

قبيل وداعه وجَّه إليها نظرة فهمت مغزاها.. وكانـت محقة في نظرة اللوم التي أرسلتها إليه.. فكم دفعت أيـادي الخطاب، واستنكرت تهافتهم.. عيونهم النهمـة رسـخت عزمها على الرفض.. وما زال تأففهم من ابنتها محفـورًا في ذاكرتهـا.. أشـارت أمهـا بـأن تنتقـي أحـدهم.. دقـت صدرها، ولطمت خديها.. وأيـضًا، كبتـت ثورتهـا حـين عرضت الأم بإعفائها من رعاية ابنتهـا للغـرض نفـسه.. دفنت وجهها في صدر أمها وبكت.. وعلى الصدر نفسه، خرجت الثورة كلمات لوم وعتاب..

- كيف أبدل بالغزال حميرًا وحشية جائعة؟! إن ظفر الكسيحة هذه بألف من رقاب الرجال..

أودعتها الأم نظرة ذات معنى.. وما لبثت أن أوسعت ابنتها عناقًا ولثمًا.. ورددت بعينها:

- ليرتاح فؤادك يـا أمـي.. فيكفينـي عنـاق المـاضي زادًا.. وحضن ابنتي يـثلج أشـواقي.. ودسـتوري: ظـل ابنتي ولا ظل رجل..

لـن تنـسى تلـك الواقعـة.. حـين وقـف أحـدهم في خيلاء.. واثقًا أن يثـير لعابَهـا وجاهتُـه وأسباب ثرائـه..

سدت أذنيها دون كلماته المعسولة.. المسمومة.. طردته حتى لا تسول له نفسه أن يعكر صفوها ويدوس محرابها.. هاجمها طيفه مرة.. اقتحم عليها الحمام وكانت عارية.. أصابتها رجفة.. لبست على الفور.. في الطريق، حاول أن يخطب ودها.. جعلته فرجة الناس وأضحوكة الكبار والصغار.. رأته للمرة الأخيرة في منامها.. وكانت معه في بيته الكبير، ومن حولهما أولادهما.. وابنتها من بعيد ترنو إليها في ذلة وضراعة.. كادت تختنق فأيقظتها أنفاسها اللاهثة.. وأمطرت ابنتها تقبيلًا ودموعًا.. وحضنتها ساعات.. وبعد.. أصبحت في الخارج ذئبة وفي بيتها نبع حنان.. طائر يحتضن بيضته الوحيدة ليدفئها في رضا وقناعة.. وحذر.. امتحن الله وفاءها في مرض ابنتها.. طاش صوابها.. أصرت على النجاح، فكافأها الله بشفائها.. تحدت شياطين نفسها وأهلها.. وشياطين الرجال جميعًا من أجل ابنتها النصف إنسان.. تجسدت كل آمالها في ابتسامة على شفتيها.. وأبدًا ما شعرت بالتعاسة معها.. كانت الحجرة لديها عالمًا واسع الآفاق يزخر بكل أسباب السعادة والفرحة.

الليلة ليلة العيد.. كبرت الصغيرة وغدت تفهم معنى العيد.. استعادت الأم لوحات العيد المتألقة الموفورة الجمال في عيون الأطفال.. شعرت بأنها قطعت شوطًا طويلًا في اجترار الذكريات.. احتوتها الرهبة.. ارتعشت أوصالها، وتشنجت أطرافها.. بالأصابع نفسها، أزاحت رأس ابنتها في حنان.. أراحتها على كومة ملابس مهلهلة.. ذبالة المصباح ترتعش مستجيرة.. ترى نظرات ابنتها المستكينة.. قامت كالمخبولة تلف في جوانب الحجرة..

- لو لم يمت.. لو أبقى الله حياته حتى هذه الليلة!

قلبها يقطر همًّا وكمدًا .. الغد لديها حياة أو موت.. ما زالت تلف وتدور.. تفتش في الأشياء.. تعبث بكل ما يصادفها.. لا تدري ماذا تصنع.. المشاعر تتضارب في قلبها، وتجمَّد ذهنها عن التفكير.. اصطدمت عيناها بصندوق الملابس.. جرت إليه.. جثت على ركبتيها.. فتحته.. كل الملابس رثة.. بعثرت محتويات الصندوق.. الفتيات الصغيرات يرفلن في أثوابهن كفراشات بيضاء.. ابنتها ستركَنُ كسيرة النفس كالخنفساء.. وقعت عيناها على قطعة قماش.. بل أطلت القطعة في عينيها.. استشعرت النشوة.. إنها هدية زوجها.. كانت قد أرجأت تفصيلها لحين شفائه..

- كم سيليق بها!..كم سيكون الفستان جميلًا أخاذًا!!

لم تضِع لحظة.. قامت تفصِّل القماش.. إنها تعرف مقاسات ابنتها.. كيف لا وهي تحفظ دقائق مشاعرها وما يدور بخلدها! على وجهها تراءى الأمل.. والشوق.. والرهبة!!.. حتمًا ستسعد ابنتها.

انبرت تعمل في سرعة، وكأنها في سباق مع الزمن.. الفأر يواصل قرضه.. غاز المصباح في سباق معها.. والذبالة تخفت تدريجيًّا.. نظرت إلى المصباح تسترحمه أن يبقى قليلًا.. تعمل بروحها وبقدر حبها لابنتها.. وبقدر

وفائها للراحل الحبيب.. النوم لا يجترئ أن يداعب جفونها.. تحركت الصغيرة.. ابتسامة عريضة غريبة أضاءت وجهها.. الأم توّاقة ملهوفة لرؤية فستان ابنتها.. أذّن الفجر.. بدأ اليوم باكتمال الفستان.. تسلل خيط النهار بانتهاء الغاز.. وانطفأ المصباح!

رفعت الفستان.. فردته أمام عينيها.. غمرت قلبها فرحة لا تُقدَّر.. قصت شريطًا من لون الفستان نفسه.. ستعقص به شعر ابنتها مثل كل الصغيرات.. ابنتها بينهن.. تضحك مثلهن.. ذيل فستانها يتراقص.. صغيرتها تتراقص.. على شفتيها ابتسامات تتراقص.. قلب الأم يرقص ويرقص.. ويغني.. ترقرقت عيناها بدموع الفرحة.. نظرت في جو الحجرة.. لقد تبدلت كآبتها.. سينتقل العيد إلى دارها.. تضحك من الأعماق.. الأم قديسةٌ تلتف حولها الصغيرات.. ما زالت ترى العيد في حجرتها.. ما زال قلبها يغني.. زوجها يبتسم.. تتسع ابتسامته.. لم تمسح من عينيها دموع الفرحة.. الصغيرات كأنهن الملائكة.. هرولت إلى ابنتها لتوقظها مثل كل الأمهات.. أمسكت يدها.. على ثغر الصغيرة ابتسامة رضاء.. ارتمت يدها بجانبها.. ولم تكن تدري أن ابتسامة ابنتها العريضة الغريبة.. كانت ابتسامة الوداع!

* * *

مأساتها

الرغي كطنين الذباب في قاعة المحكمة التي غصت بالحاضرين.. القضية تهم القليل منهم.. ومع ذلك، يصعب أن تميز من يرغي ومن يسمع! وكل حين، يتحول الطنين إلى عجيج.. الوجوه متباينة التعبيرات.. بين عابسة كالحة.. وشاحبة خائفة.. وجامدة شامتة.. ومشغوفة لا تفوتها فائتة.. وهذه أشدها خطرًا.. فلا هم لها إلا تتبع الأحداث؛ لتعجل بنقلها مبالغًا فيها أو محرفة! وسرعان ما تشيع في معظم الأوساط؛ فيحاك حولها تكهنات العرَّافين وتوقعات العليمين ببواطن الأمور! القلوب واجفة، والعيون زائغة، والنفوس قلقة.. فالحادثة فظيعة.. والصحف تتناولها محفوفة بما يثير اللهفة والفضول!

المنصة قابعة في الصدارة في عزة وشمم.. تتطلع إليها الأعين.. دخل القاضي ومستشاروه وممثل النيابة.. وقف الجميع، بينما خفتت الأصوات.. اختلس القاضي نظرة إلى جناحيه.. لا يقلان عنه دهشة.. فالجمهور غفير.. وتبرز فيه شخصيات إعلامية وعديد من رجال القانون.. جلس الجميع عندما جلس القاضي.. ممثل النيابة متحفزًا ينقل بصره بين الدفاع وقفص الاتهام الخالي.. طرق القاضي عدة طرقات، فعمَّ الصمت إلا من أنفاس مبهورة.. أومأ للحاجب الذي انتصب كالتمثال، فتدفقت الكلمات من فمه أشبه بالصراخ! معلنًا رقم القضية واسم المتهمة.. اتسعت الأعين، واشرأبت الأعناق ناحية القفص.. دخلت المتهمة بخطًى واثقة! وقفت بالقرب من القضبان.. برقت

العدسات.. علت شهقات، واختلطت أحاسيس، واهتزت خواطر.. فالمتهمة تبدو لوحة حية لفنان مبدع.. شحوب الوجه لم يطمُس جمال القسمات.. والعينان نجلاوان بريئتان.. يعشش فيهما الشجن، ويرقص فوق جفونهما الكمد.. والأنف شامخ يؤكد جسارة! أسفله فم مطبق الشفتين في إصرار.. وكلٌّ يحمله جيد طويل معرورق قليلًا.. والجسد مع وهنه متناسق الأعضاء.. والوقفة متحفزة لا تتسق وانتفاخ بطنها وتهدل شعرها الناعم الفاحم.. تدانت الرؤوس ودار همس.. سرت الجلبة ليطرق القاضي وتسكت الألسن.. وبالنفوس حديث شائك يحوطه الغموض.. وسؤال يفرض نفسه:

- كيف تقتل هذه القبَّرة.. كيف؟!!

يقف ممثل النيابة حين يلمح فريسته.. تلمظ.. وأغلب الظن أنه كان يقرض على أنيابه.. ارتعشت جفونه حين لاحظ كبرياءها وهدوءها! يومئ له القاضي فينفجر البركان قاذفًا حممه على رأس المتهمة، ومطالبًا بعنقها.. يتوقف لحظات ليعود الضجيج، يستطرد أشد انفعالًا..

- سادتي.. لا يخدعكم هدوؤها المصطنع، فإنها تمعن في حبْك دورها التمثيلي.. هادفة التغرير بهيئتكم الموقرة..

ثم يضيف في لهجة رجاء:

- ارحموا مجتمعنا من أمثال هؤلاء القتلة.. سفّاكي الدماء الطاهرة.

ويرتفع صوته ثانية مشيرًا نحو المتهمة:

- إنها ميكروب فتاك.. سرطان مدمر.. بل..

فرغ صبر الدفاع، فتدخَّل مقاطعًا الهدير الغائر:

- سيدي القاضي.. حضرات المستشارين.. أعترض بشدة على النيابة؛ حيث لم يثبت إدانة موكلتي بعد.. كما أرجو أن تستخدم النيابة ألفاظًا تليق وجلالَ المكان..

هز القاضي رأسه، ثم شخص إلى ممثل النيابة الذي أضاف:

- إنني على ثقة بعدالتكم.. وآمل ألا تأخذكم الرأفة بهذه الأفعى.. ولتنل أقسى العقوبات، فتكون عبرة لشبيهاتها.. وليرتدع كل من تسوِّل له نفسه اللهو بأرواح بني البشر.

جلس ممثل النيابة.. خمد البركان مؤقتًا.. أشار القاضي للدفاع .. قام وخطا في تؤدة، ووقف بالقرب من المنصة.. ران الصمت إلا من فحيح الأنفاس.. ولم يكد الدفاع يتفوَّه بكلمة لتهتف المتهمة:

- لا

تحولت إليها الأبصار في دهشة واستغراب.. سكتت لحظات، ثم قالت في ثبات:

- أثني على الدفاع.

ثم وجَّهت حديثها إلى هيئة المحكمة:

- أيها السادة.. إنها قضيتي.. وسوف أقوم بسرد دقائقها.. لو أذنت المحكمة..

أمال القاضي رأسه يمنة ويسرة.. وتسنح الفرصة لانتشار الهمهمات .. يدنو الدفاع من المتهمة هامسًا لها في لوعة:

- لِمْ؟!.. لِمْ؟!

استشاط ممثل النيابة غضبًا .. وقبل أن يفتح فاه يهتف القاضي للدفاع:

- دع المتهمة يا أستاذ..

طغى الصمت إلا من تلاحق الأنفاس .. تشبثت المتهمة بالقضبان.. مرت لحظات قاسية، وخرج صوتها:

- سادتي.. تبدأ حكايتي.. أو قضيتي قبل لقاء زوجي.. حبيبي الذي قتلته..

علت تعبيرات الذهول حين انفجرت أسارير ممثل النيابة لتقفز الكلمات من فمه:

- المتهمة تعترف.. المتهمة تعترف، والاعتراف سيد الأدلة..

تماسكت المتهمة، ثم استرسلت:

- كنت بعيدة عن الناس.. وكان عالمي هو داخلي.. نفسي مستودع أسراري ومقبرة مشاعري .. لم يحفلوا بي، ولم يخفُّوا لنجدتي.. منعني الحياء أن أبوح بشيء حتى لأمي.. إلى أن رأيته لأول مرة.. وأين؟ .. داخل بيتنا!.. أو .. حصن والدي المنيع.. أمر يدعو للدهشة.. فكان أول زائر لنا منذ سكنانا بتلك القرية.. تكرر اقتحامه الحصن.. بل انتقلت جلساته مع أبي وإخوتي إلى الصالة!.. تطور سريع!.. وكم كنت أتحرج كلما اضطررت للمرور أمامه!..

توقفت المتهمة لحظات .. تبدو القاعة وكأنها خالية!..

- وفي يوم عدت من مدرستي لأجد الجميع ملتفًّا حوله!.. دخلت حجرتي لأبدل ملابسي مسائلة نفسي:

- لِمَ هذا الشاب بالذات... لِمَ؟!!

وبعد لحظات، جاءت أمي تدعوني لمشاركتهم خير من وحدتي!.. ألهذا الحد!.. لم أعتذر؛ إذ كان بالنسبة لي شيئًا جديدًا قد يكسر رتابة الحياة .. خطوت مترددة، وجلست بين أختيَّ .. لم تفارق عيناي وردة مشغولة بالمفرش الذي كان أمامي.. كم عشقت تلك الوردة إذ كانت ملهمتي في الكثير من قصائدي!.. استطعت أن أختلس نظرة إليه لأقع فريسة لعينيه.. وكأنه كان يتلمس تلك الفرصة .. لم أستطع أن أحوِّل بصري ناحية أخرى.. قرأت في عينيه كلامًا.. وما كنت أدري أنه سيتربع على عرش قلبي.. وقعت في الأسر.. أحببته بكل معان الحب...

تنهدت المتهمة.. القاعة صامتة دون طَرْق!!

- ... وفي مرة، ضمنا المكان وحدينا.. دقائق.. بُحت له بمشاعري، لم أدر كيف.. واعترف بأنني ضالته.. وتعاهدنا على الوفاء.. شعرت بأنني أخرج من سجني.. وكانت تراه أسرتي أنموذجًا رائعًا للشباب جميعًا.. وكان إطراؤهم له على مسمعي يبعث النشوة في كياني، ويؤجج نيران الحب في قلبي.. ولأراه وسامًا لو أعلقه على صدري.. وتاجًا لو أضعه فوق رأسي.. وملاكًا تمنيت أن أعيش بين جناحيه.. وأبدًا لن أنسى كلامه ما حييت..

- متى تكونين لي وحدي.. ملكي؟!!

جاء مرة، وقد اتشح وجهه بالسواد.. مادت بي الأرض.. وقال في سورة من الغضب:

- سمعت أن هناك مَن يرغب في زواجك..

كدت أضحك:

- ولهذا أنت مغموم؟

علته الدهشة والشك.. وقال في ضيق شديد:

- إنه يريدك لنفسه!

كم كنت تواقة لمداعبته:

- وما الضير؟

كم راعني أثر مباغتتي له.. أشفقت عليه وعلى نفسي.. وقلت مداعبة:

- ثق أنني لشخص وحيد..

ويتساءل في غباء:

- مَن هو؟!

- إنه أنت.. أنت.. أقسم على ذلك.

وتنفرج شفتاه بابتسامة طفولية.. تكرر ذلك الموقف مرات.. لم أتذمر .. بل زدت حبًّا وتمسكًا.. وذات يوم، جاء يعرض علي أن يعجل بطلب يدي..

وعندئذ صرخ ممثل النيابة:

- هراء .. المتهمة تحكي تفاهات، وتسرد تفاصيل ليس لها أية صلة بالقضية..

رد الدفاع مؤكدًا:

- بل إنه في صلبها .. والتفاصيل لها قيمتها.

أشار القاضي لهما بالجلوس.. لتنبري المتهمة راوية:

- ساورني القلق رغم فرحتي.. فكنت لا أزال طالبة.. وكانت محاولاتي لإقناعه بالتأجيل إيذانًا بوقوعه في شباك الحيرة..

تأوَّهت المتهمة، ثم استطردت:

- سيدي.. كنا نسكن قرية كما ذكرت.. غرباء بين عائلات متضافرة.. والأنظار دائمًا تسلط على الغريب، فتناقلت قصة حبنا .. وتردد صداها في بيتنا، مما أقضَّ مضاجعنا.. وشاع بيننا غموض.. تبدل إلى نقاش وتحقيقات.. ثم إلى زعيق.. وكانوا يرونني وصمة عار في جباههم، وما جنيت على أحد ولا على نفسي.. كما تقطعت روابط الثقة بين أسرتي وحبيبي لينقطع عنا.. انقلب الحال.. أبى القدر إلا الإطاحة بسعادتي بعد أن طوى الحب قلبي وسلب لبي.. وفي مرة، قطع صمتنا طرقاتٌ على بابنا.. تبادلنا نظرات الدهشة.. هاجت كوامني، وتململت قدماي، قام والدي ليفتح الباب حسب قراره.. فوجئنا بعمائم كبيرة تتألق فوق جباه عريضة وأجساد ضخمة.. تدحرجت داخل شقتنا... إلى حجرة الصالون.. بدأ الحوار هادئًا، وسرعان ما حمي وطيسه، واشتد أواره ليبدو جدالًا عميقًا.. وسمعت كلمات أبي.. أو طعناته:

- ابنتي لا تعرف الحب .. فكيف تحب مَن فضحها وشنع بها.. لقد استأثرتُه من بين الناس، ودخل بيتي كصديق.. ولم أتصور أن ينقلب صقرًا..

قرأت في عيني أمي وإخوتي تأييدًا لما تفوه به أبي.. أجمعوا على تعاستي.. سحقوا آمالي، وضيعوا أحلامي..

وخرج الضيوف مطأطئي الرؤوس .. صفق أبي الباب خلفهم.. تأكدت أنني طردت عارية من الجنة التي كنت أحياها في أبراج ضياعي السامقة.. وفي اليوم التالي، جاء حبيبي ليقذف بسهمه الأخير.. تخيلته قيسًا جاء لينقذ ليلاه.. طُرِد منكرًا مدحورًا.. ساعتئذ تمزقت عرى الثقة التي تربطني بالحياة.. إلا حبيبي.. حطمت معه كل العقبات باسم الحب.. والتقينا سرًّا.. كم ذقت المرار من أجل تلك اللقاءات.. ولم تطل لحظات السعادة المختلسة.. كشفوا أمري، وانهالوا علي بكل صنوف التجريح والإهانة وكأنني كلبة ضالة!.. أحسست أن بودهم لو تخصلوا مني.. أو خلصتهم أنا من حياتي.. ولكن، كنت قد عشقت الحياة.. بل إن قسوتهم علي زادت من تشبثي وتكالبي عليها.. وبت آمل لو أنسلخ وحبيبي إلى عالم آخر.. كرهت كل الناس إلا حبيبي.. كان لي مرفأ.. حتى خياله.. كم بثثت إليه لواعجي وهمومي ولوعتي!..

نخرطت المتهمة في البكاء، بينما قالت:

- ما عرف لساني سوى اسمه.. ولم ينبض قلبي بغيره..

سنحت الفرصة لممثل النيابة، فاندفع ثائرًا:

- إن المتهمة تمثل أروع أدوارها.. إنها تستدر عطفكم بنحيبها.. و.. وكيف تصغي هيئتكم إليها بعد اعترافها؟!!

انتفض الدفاع زاعقًا:

- إن الدموع طبيعية.. والمتهمة صادقة في كل ما ترويه.. وكل ما أرجوه أن تتسع صدوركم لها..

أمرهما القاضي بالتزام الصمت.. طلت عَبرة من عيني المتهمة، وأبت أن تنزلق على خديها.. تماسكت.. كانت خصلة من شعرها قد وقعت على جبينها، فزادت اللوحة جمالًا وروعة.. وامتلأت قلوب الرائين لوعة.. أضافت:

- كانت تهون ألوان العقاب في سبيل لقياه.. ودائمًا ما كان يردد:

«لا أتصور أن أفتقدك.. أنت لي وحدي.. أليس كذلك؟»

أحسست بالزنزانة تضيق من حولي.. وبدت قضبانها متشنجة تحوط عنقي وتضغط على صدري.. وبت لا أطيق ذلك الكابوس الثقيل.. لم يكن أمامنا إلا.. إلا أن نتفق على الفرار.. ذلك ما تبادلته عيوننا، وأكده حديثنا.. لا بديل..

ابتلعت المتهمة لعابها:

- اضطررت لخداع أسرتي .. تمثلت بأنني استعدت رشدي.. أكدت لهم أنني نسيته.. بل كرهته..

تبودلت النظرات.. انسابت الدموع على الخدود..

- كانت أيامًا عصيبة تلك التي كانت قبيل الهرب.. استعنت على الملل باستعادة الذكريات، وأفرغت شحناتي شعرًا.. أحلى ما سطر قلمي..

فررت معه بمساعدة بعض أصدقائه..

التفتت المتهمة إلى الدفاع الذي انكمشت أساريره إشفاقًا!..

كم أعجز عن وصف سعادتي.. تلقفتني يداه.. وعقدنا قراننا في حفل صغير.. كان رائعًا في عيني.. علمت بعدئذ أنه طاش صواب أبي عندما وقف على فعلتي.. وهام على وجهه هنا وهناك بحثًا عني.. وناس القرية يراقبونه في شماتة وتشفٍّ.. ويعود في قلب الليل راغيًا هائجًا ومهددًا:

- سأقتلها وأدفن عاري..

وعاشت أسرتي أيامًا حالكة فاقدة الكرامة.. ولم تهدئ الدموع لهيب القلوب.. ولم يهدءوا في البحث عني.. وكنا نغير أماكن إقامتنا كلما أحسسنا بدنو الخطر.. وعندما تعبوا ويئسوا أعلنها أبي صريحة ببراءته مني.. وبت لديهم في عداد الأموات.. أخيرًا، عدنا إلى القرية.. استقبلوا زوجي استقبال الظافر.. واحتفوا بي أيما احتفاء.. وعشت معه في منزل أسرته.. السعادة تملؤني والدنيا كلها بين يدي.. وعندما علم أبي بعودتي.. لم يحتمل وهجر القرية مع أسرتي..

أتَت المتهمة.. انشقت قلوب القريبين منها، وسحّت دموعهم .. واستطردت!

- عشقت ثغاء الغنم، وقرقرة الدجاج، وهديل الحمام.. حتى نهيق الحمار!.. كانت كلها جديدة على مسمعي.. ومرت الأيام سريعة سريعة.. حتى دب قلبي يومًا.. وكان إنذارًا بالخطر.. انتفض كياني..

شعرت بأنني أنزلق في خضم دوّامة.. وجدته يتبدل يومًا بعد يوم.. بل ساعة بعد ساعة.. واصطبغت ملامحه

بالتجهُّم حتى غدا إحدى سماته.. هذا فضلًا عن دوامة السهر إلى ساعة متأخرة من الليل.. خشيت مفاتحته واهمة نفسي بأنها أمور عرضية سرعان ما تزول.. ولكنه أبى.. وكأنه أقسم ألا يقلب تلك الصفحة التعسة من كتاب سعادتنا.. أو كأن الكتاب قد تصفحه جميعًا.. وبدا قصة معادة.. رثة.. تجرأت واستفسرته.. عزت عليه كلمات يلقيها على مسمعي.. وترك العنان لأسرته تعيرني، وتتشدق بفعلتي.. كم أحرقتني ابتساماتهم الخبيثة وضحكاتهم الماكرة.. الأمرُّ أنه حذا حذوهم.. وأول ما نطق كان بالهجوم علي مستنكرًا فراري معه!.. وبأنني بعت أسرتي وفي الغد سأبيعه.. اشتد فزعي.. لم يطق سماع دفاعي عن نفسي، وصمَّ أذنيه عني.. أصر على إهانتي..

عشت أيامًا ملؤها الغم، غير مصدقة وكأنني أعيش في عالم آخر.. واتسعت دائرة المضايقات إلى أهله والجيران بل وكل من يلقاني.. ألهبوا كرامتي.. خدشوا عفافي بتعليقاتهم الكريهة.. أصابتني الحسرة.. ومع ذلك لم يتزعزع حبي له.. إذ كان عندي بصيص أمل أن يعود إليَّ.

بكت المتهمة بكاء مرًّا..

ذات يوم صرخ في وجهي قائلًا:

- كيف أعيش مع إنسانة بلا أهل؟.. الناس يلومونني، ولهم كل الحق.. لقد دبرتم مكيدتكم لأتحمل نفقات الزواج وحدي.. وكنتُ وأهلي ضحية مؤامراتكم.. لقد تخلصوا منك.

ويستطرد في إمعانٍ لإهانتي:

- إنني أعرف والدكِ.. إنه يعبد المال.. لن أنسى يوم صردتي.. وإهانة أهلي، ونحن أسياد الناس..

ليتني مت قبل أن تلطم عباراته أذني.. كانت تتراشق كالسهام في فؤادي وكرامتي.. تفرست في وجهه، وقلت له:

- أتنتقم مني؟!

فوجئت به يصرخ، وقد أغرق وجهي برذاذ فمه:

- ألست ابنته؟.. أليس مسؤولًا عنك.. وكيف تهربين؟!.. لو كانت أختي لقطعتها إربًا!..

وما زلت أتأمل وجهه.. لم يشح به عني.. ولم يتأثر بنظرتي الملتاعة!.. وقلت له في انكسار:

- لقد أحببتك..

ويرد في استهزاء وشماتة:

- أحببتيني!.. إنك لأفعى.. استطعت أن تطويني وتفتكي بي..

لم يرحمني.. وكم كانت صدمتي.. وكم اسودت الدنيا في عيني.. وبالذات حين ألقى قنبلته:

- تستطيعين أن تبحثي عن بيت آخر.. وغبي غيري!

وجدتني أتعلق بيديه.. وأرتمي على قدميه أقبلهما في ذلة.. وما رحمني.. بل دفع وجهي بقدمه، ووطأ يدي.. بكيت وبكيت.. وقلت له:

- ليس لي إلا أنت..

وكان قد وصل إلى قمة حنقه:

- أنا الذي سأودع المنزل، وأدع لك الدنيا..

سكتت المتهمة برهة.. خرج صوتها مبحوحًا:

- وبالفعل.. هجر المنزل.. هاجر وتركني للعقارب تنهشني في كل حين.. فكرت طويلًا.. إلى أين أذهب.. إلى أين؟!.. لم أفكر في العودة إلى أهلي، فلن يغفر أحدهم خطيئتي.. أأبحث عن عمل بمؤهلي.. وأي مكان يأويني، وأنا وحيدة في الدنيا الواسعة.. وأخاف الذئاب.. لم تهدأ عيني من البكاء.. عفت نفسي الطعام والشراب، فولَّت نضارتي، وذهب جمالي..

واسترسلت المتهمة في نحيبها.. حين تنطلق صرخات ممثل النيابة:

- لا أتصور أن تنصت هيئة المحكمة لكل هذه المهاترات..

ولأول مرة ينفعل القاضي قائلًا في حزم:

- عليك بالإنصات يا أستاذ..

وأردفت المتهمة:

- وبعد شهور، تجرعت فيها كؤوس الهوان.. عاد ليراني شبحًا.. فتشت في وجهه عليِّ أجد كِسرة إنسانية أتبلَّغ بها، وأعيش على هداها..

ولكنه كان أشد فظاظة وغلظة، ليقول في وحشية:

- كفى ما ضاع من عمري معك.. ولأعوض تلك الأيام الكالحة..

وكنت قد أخفيت عنه أمرًا.. أعددته مفاجأة.. آملة أن تكون سارَّة.. إلا أنه هتف:

- اغربي عني، ولتذهبي إلى الجحيم.

أُجبرت أن أكشف له عما أخفيته عنه.. فقلت بين رجفتي:

- والجنين؟..

أصابه الذهول حين سمع كلمتي هذه.. والتي نزلت عليه كالصاعقة مرددًا في خبل:

- جنين.. جنين!!

ثم صارخًا بكل عزم:

- ابن مَن هذا؟!

أجبته في صبر شديد:

- ابنك.. ثمرة حبنا!..

فقال في دناءة وصفاقة:

- تستطيعين أن تبحثي عن أبيه.

غامت الدنيا في عيني.. ومرة أخرى ارتميت على قدميه متوسلة متضرعة أن يرحمني.. ولكنه عاد يردد الجملة نفسها.. استمر يطعنني في وحشية.. شعرت برأسي يدور، والأرض تميد من تحتي.. والأشياء من حولي تقع وتتدحرج وتتحطم.. وأشياء تتفجر.. ورأيت وجهه يطفح حقدًا.. وفمه يقطر سمًّا.. أبصرت شيئًا لامعًا يتراءى لي ويجتذبني.. قفزت.. التقطت ذلك الشيء.. طعنته في كل مكان وقعت يدي عليه.. وكانت طعنات محمومة.. لم أدرِ ما كنت أصنع.. رأيت الدنيا تصغر، وجسدي يثقل..

وجسده يترنح ليسقط.. وسقطتُ - أيضًا - في سائل حارٍّ لزج.. وكانت صرخاته آخر ما سمعت..

ضجت القاعة ضجيجًا.. جلجل الزعيق، واختلط بالبكاء والصراخ.. ودقت مطرقة القاضي..

- وذات ليلة، فتحت عيني على جو من البياض والبهاء.. استفسرت، فأجابني ملاك رحيم.. كم كانت دهشتي أن تسكن الأرضَ ملائكةٌ.. أو أنني في عالم الآخرة.. أحسست بنشوة.. فوجئت بوجه آخر بيِّن البياض.. في العينين لهفة والتياع.. اختلط علي الأمرُ.. عدت أفتش في ذاكرتي عن ذلك الوجه..

سُمع في القاعة بكاءٌ وأنين.. أشارت المتهمة نحو الباكية، وقالت:

- هذه هي.. إنها.. إنها أمي.. أمي..

ترددت الأصوات في القاعة.. علا البكاء هنا وهنا وهناك.. ثم أشارت المتهمة إلى الدفاع قائلة:

- إنه الشاهد الأول على عقد قراني.. وكان عونًا لنا يوم الفرار إلى الجحيم.

أخفى الدفاع وجهه في ردائه الأسود.. واهتز رأسه وكل جسده.

- كم حاول إقناع الراحل أن يعود.. لن أنسى الراحل، فإنه والد الجنين الذي يتقلب في أحشائي.. إنها قصتي دون حذف ولا إضافة ولا مواربة.. وأثني حسن إصغائكم.

تململ القاضي في مكانه.. وقد تندت عيناه بالدموع.. رنا ممثل النيابة إلى المتهمة في جزع.. آنئذ وقف الدفاع، وأخرج تقرير الطب الشرعي الذي يثبت أبوة المجني عليه للجنين.. وتقريرًا آخر يؤكد ضعف المتهمة صحيًّا بسبب سوء التغذية.. لمعت عينا القاضي، بينما تناول التقريرين.. ثم أعلن تأجيل القضية للحكم..

ودَّع الجمهورُ المكان، وقد شملهم الهدوء والسكون.. وكأنهم مودِّعون دار عبادة بعد صلاة طويلة..

كومة العظام

ارتكز بمرفقيه على سطح مكتبه الكبير.. واحتوى رأسه بين راحتيه.. وظل على حاله هكذا.. لا تستطيع أن تجزم إن كان ممعنًا في التفكير.. أو نائمًا.. أو أنه يبكي!.. ولكنه بالقطع ليس ميتًا، فأنفاسه تتردد.. رفع رأسه فبانت عيناه حمراوين وجفونه متكسرة.. امتدت يده إلى صندوق خشبي مطعَّم بالأبنوس.. سحب لفافة تبغ أشعلها بفتور.. اجتذب نفسًا عميقًا.. وآخر.. وثالثًا أشد عمقًا.. أحاطته دوائر الدخان، فبدا كصيد في شبكة.. تصاعد الدخان متثاقلًا.. جعل ينظر إلى ما حوله.. توقف بصره على صورة أمه الكبيرة.. البشرة بيضاء بملامح طيبة.. تزينها ابتسامة وادعة.. كانت تلك الابتسامة أوضح ملامحها.. لم تختف، ولم تبهت حتى ساعة منيتها.. ما زال يذكرها.. وها هي يشع النور في وجهها.. لا ريب أن الفنان الذي أبدعها قد تأثر بها، فخرجت لمساته معبرة صادقة.. ويذكر صوتها الدافئ مبعث الطمأنينة.. سرح بخياله بعيدًا حيث طفولته.. ما حلم بشيء قط.. كانت كل رغباته واقعًا ماثلًا أمامه وبين يديه الصغيرتين.. كان وحيد أبويه ووريث عزهما.. وسليل عائلتيهما ذوي الجاه والنفوذ.. كم دلَّله والده.. وكان يرى فيه صباه السعيد.. حول بصره إلى خارج حجرته.. ارتسمت على وجهه الكآبه.. أيضًا، يذكر ساعة الحائط النادرة، وعقرب الثواني النطاط.. ها هو يثب في رشاقة.. الساعة تدق في ماضيه.. تشير إلى لحظات السعادة.. ويذكر صنوف

الزهريات وأشكالها.. كانت منتشرة في كل مكان من القصر.. وكانت تزخر بأغرب الزهور وأندرها.. كتم أنينه في صدره، فمن يسمع شكواه.. وعلى مَن يثور؟ فخرج الدخان المتكاثف من النافذة حاملًا ذكريات الطفولة.. الصور تتوافد في مخيلته.. يرى صباه.. كاد يقهقه من شدة الحنق.. أيضًا، كتم ضحكة، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة.. مُرَّة.. كانت الحياة رائعة.. لم تكن الفرحة تغادر قلبه.. تناول لفافة أخرى.. أشعلها واجتذب نفسًا عميقًا ونفثه.. غطى الدخان صورة أمه.. وطفق يستعيد الذكريات..

في شبابه، ركب عربة خاصة فارهة.. طاف عواصم أوربا.. كان يرى احترامه في عيون الناس.. وفي انحناءاتهم ومجاملاتهم.. وما سمع اسمه مجردًا من الألقاب.. أطفأ لفافته بعصبية.. تدريجيًّا انقشع الدخان.. ارتكنت ابتسامة أمه في زاويتي عينيها لتبدو ساخرة لاذعة.. التفت إلى ناحية أخرى، ومع ذلك تحتل رؤيته.. اندفعت الدماء في عروقه حارة.. قام.. خطا إلى البهو الكبير.. لم يلتفت إلى صورة أمه.. جعل يجوس في القصر.. يدقق النظر في محتوياته.. كأنما يراها لأول مرة.. الصمت متربع إلا من وقع خطواته القلقة.. قطع الأثاث غشيتها الأتربة، فطمست جمالها ورونقها.. بدت كتلًا ممسوخة لا تعني شيئًا، ولا تضيف إلا القبح.. تأملها متحسرًا.. داخله يئنُّ.. ما زال يحوم حول الأشياء.. توقف في مكان بعينه.. تفرس في الحائط المواجه.. أين الساعة الكبيرة؟!.. كانت تحفة رائعة.. نظر في ساعة

يـده.. الثانيـة تمامًـا.. الـساعة لا تـدق دقتـين.. ولا دقـة واحدة!.. كانـت هنـا!.. هنـا في هـذا المكـان!.. رنـا إلى السقف.. إلى الجدران.. إلى الأرضية.. كانـت التحـف في كل شبر.. بقيت أشلاء عز وبقايا ثراء.. نفايات يجـب أن تُعدم.. أو تقذف في جُب.. اقترب من إحـدى النوافـذ.. أشرف منهـا حيـث حديقـة القـصر.. الحديقـة خربـة.. خيمـت عليهـا قوافـل العنكبـوت.. وتـسكنها الهـوام والجرذان والخفافيش.. هجرتها الأطيار.. كانـت غنَّـاء.. تزخر بأحلى الـثمار والغريـب في عـالم النبـات.. وكانـت تضوع فيها أعطر الروائح.. وكانت تصدر منهـا أعـذب الألحـان.. كـان.. وكـان.. اسـتطرد في رؤيـة الأطـلال.. استطرد - أيضًا - في هذيانه.

عربتي؟.. كانت هناك!.. كانت حمراء كالوردة.. كـم قطفت منها ورودًا لأحظى بقبلات أمي..

يتحسس خده..

كم كانت قبلاتها حنون.. تُرى أيـن العربـة؟!.. وأيـن البستاني؟.. وأين أمي؟.. بالأمس كان القـصر يـشع بهـاء كالقمر في كبد الـسماء.. أصـبح خرابًـا يبابًـا تعـشش فيـه البوم.. نأى عن نافذة القصر المطلة على الأطلال.. واصـل زحفه.. وقف أمام كتلة صدئة مترية.. ناتئة عـن الحـائط.. إنها خزانة النقـود والمجـوهرات.. امتـدت يـده تفتحهـا.. غشيته رهبة.. ودس يده في أحشائها المعتمة.. عبثت يده في جوانبها.. عثـرت عـلى وريقـات.. أخرجهـا ونظـر إليهـا مليًّا.. إنها البقية الباقية.. أوراق لا تُغني من جوع.. تتمزق لها الأحشاء حسرة.. بخياله قرأ طالعه.. دنيـا مـن الظـلام

يقف في أعماقها كحشرة هينة.. تعبث بها النسائم ساخرة.. تطيرها الرياح إلى بئر سحيقة.. الحشرة تغوص وتستغيث.. وأنّى يُنصت إلى صراخ الحشرات؟ سقطت من يده الأوراق.. سعى إلى نافذة مغلقة.. فتحها ليطل على المارة.. لا أحد يهتم بالنظر إلى القصر.. أصبح لا يستحق نظرة.. بالأمس كان محط أنظار العيون الذاهلة الحاسدة.. غدا ماردًا حقيرًا لا يحظى بالنظرات العابرة.. لم يحتمل.. ودع النافذة.. حث خطاه.. يسمع صدى وقعها.. وقف أمام أحد الأبواب.. التقط أنفاسه.. دفعه بقدمه.. خطا داخل الحجرة.. واصل سيره بهدوء يخفي بين طياته ثورة.. توقف أمام فراش مهلهل عليه كومة عظام تشكل هيكلًا آدميًا.. تتردد منه أنفاس واهنة.. ارتطمت ضرفة النافذة.. نسمة هواء لسعت وجهه!.. عبثت بأوراق كتاب، فأصدرت صوتًا.. نظر إلى الكتاب الوحيد بين حشد من الرفوف والأدراج.. ابتسم ابتسامة صفراء.. الكتاب يئن لوحشته.. جعل يهمس بأسباب عذابه.. قطع الهمسَ صوتٌ خفيضٌ يخرج من الكومة المتداعية:

- أأنت يا ولدى؟

لم يجب.. فاستطرد الأب.. الكومة:

- لا تجزع يا بني.. فأملي كبير في الشفاء.. سأعيش من أجلك.. كم تكون الحياة جميلة!..

استرجع كل كلمة قالها والده الميت الحي.. زم شفتيه.. دار على عقبيه.. خرج من الحجرة ومن القصر.. هم على وجهه في الطرقات يتفرس في كل وجه يصادفه ولسان حاله يقول معاتبًا:

- هأنذا.. ألا تعرفونني.. أنا سعادة البك.. أنا ابن سعادة الباشا!

- عرج إلى ثلة كانوا بالأمس أصدقاءه أو بالأحرى أتباعه.. أخال في وسطهم مقعدًا شاغرًا.. إنه مقعده.. كان بالأمس مقعده.. كان يجلس وسطهم.. وهم من حوله.. عيونهم عليه.. وجوههم بشوشة مستحية.. أفكارهم وجوارحهم أسيرة له.

- لا ريب أن للمقعد صاحبًا غيري.. ويطوف الآن عواصم أوربا.. وخزانته مكدسة بالأوراق النقدية والمجوهرات.. يبعثر كما يحلو له بلا ضابط.. أياديهم تتلقف ما يبعثره.. أو.. أو يقذفها للسمك لو ظن أن الأسماك تتغذى على النقود!.. وليس له أب نصف ميت.. أو نصف حي.. وأنهم ينتظرون عودته في لوعة.

كلٌّ رآه.. وكلٌّ تفادى النظر إليه في تأفف.. كل هشه.. كما يهش بعوضة أو ذبابة.. كانوا يهشون ويهرعون للقائه.. وكانت رؤوسهم تنحني احترامًا.. أحس بالضياع كغريب ضل الطريق.. أَوَ ليسوا هم؟!.. يتهامسون ثم يضجون بالضحك.. انطلقت ألسنتهم بتعليقات لاسعة.. شاوية.. تجمعت الدماء في رأسه.. نظر من حوله نظرة المريب.. اندفعت الدماء في ساقيه.. فر هاربًا.. شعر بضحكاتهم تلاحقه.. وأصابعهم تشير نحوه.. الضحكات تصم أذنيه وتلسع كرامته.. لِمَ يضحكون؟.. لِمَ؟ وقف أمام واجهة زجاجية ليرى في وجهه ما يضحك.. قرأ الكآبة.. همَّ أن يبصق على الزجاج.. رآه صاحب الحانوت.. حدجه بنظرة استغراب واستنكار، ولسانه يهتف:

- مجنون؟!

خبطت الكلمة أذنيه، وتخبطت في رأسه.. جرى بأقصى سرعته.. وقف على «الكوبري».. يلتقط أنفاسه.. اقترب من السور.. أرسل طرفه إلى المياه.. المياه هضاب صغيرة تتلألأ رؤوسها كأنما ترحب به.. سرح قليلًا.. نظر إلى راحتيه وأصابعه..

- إنهما مشلولتان ناعمتان..

لا يخبر غير القبض على الأموال ونثرها في كل مكان وأوان..

- كيف أعيش؟.. بل لِمَ أعيش؟ .. لِمَ؟.. ما قيمة الشباب بلا أوراق حمراء؟..

على صفحة المياه، ظل يقرأ سطور مستقبله، خال أنه يغوص في لجتها.. المياه تندفع في رئتيه لتزهق روحه.. جحظت عيناه.. غشي وجهه شحوب الموت.. تذكر والده كومة العظام..

- تلك الكومة سبب الدمار.. وما زالت تواصل التخريب لا موت ولا شفاء.. أنفاس تحرق ما يصادفها.. أشد فتكًا من البركان..

نظر إلى الطريق الأسود.. عاد أدراجه إلى القصر.. الدوار يجتاح رأسه.. أحشاؤه تصرخ.. طبول تنشر الرعب في كيانه.. الضحكات ترن في أذنيه.. الأصابع تشير نحوه.. دخل مهرولًا.. صعد الدرجات قفزًا.. انطلق في الردهة.. أغلق النوافذ.. جرى إلى حجرته.. وقف أمام صورة أمه.. ما زالت نظرتها ساخرة.. كل ملامحها تنطق بالتهكم.. سياط تلهب جسده.. قفل

عائـدًا.. وقـف أمـام حجـرة والـده.. قلبـه يـدق.. قـده يتزلزل.. مطـارق تنهـال عـلى رأسـه.. أصـدقاء الأمـس يقهقهون.. أصابعهم تكاد تخترق ظهره.. أو تفقأ عينيـه.. دخل الحجرة.. أضـاء المـصباح، فبـدا الـضوء شـاحبًا.. اشتم رائحة مهيجـة.. هاجـت الريـاح خـارج القـصر.. دوّت.. خرجت الكلمات من بين أسنانه:

- عليَّ إنقاذ ما يمكن..

اتجـه إلى الفـراش.. تأمـل الكومـة.. أعـصابه تحـترق.. انتشرت في جسده رعدة.. بهت حين رأى الكومـة تتحـرك، وصـوت ينبعـث منهـا.. انتفخـت طاقتـا أنفـه.. تقلـصت عضلاته، وتشنجت أطرافه.. ضـغط عـلى فكيـه.. نظـر إلى الفراش، فانتفضت الكومة.. حدق إلى وجه والده الممتقـع.. رفـع يـدين حديـديتين.. طـاش صـوابه حـين رأى شـفتيه تتحركان.. هوى على عنقه قبل أن ينبـث بحـرف.. ضـغط بكل قوته بين صياحه وزعيقه كأنما يطـرد روحـه.. اتـسعت عينا الأب وبرزتا.. وسرعان ما انطفأت منهما الحياة.. جعـل يحملق إلى الجثة بين لهاثه.. ارتعدت فرائصه حـين تخيـل أنـه سمع صوته.. الرعشة تهزه هزًّا.. طفـرت مـن عينيـه دمـوع حـسبها دمـوع الفرحـة.. ارتـج الفـراش بـاهتزاز رجليـه، فأصابه الذعر.. حملق إلى الجثـة.. فغـر فـاه وعينيـه.. شـبح والده يتحرك!.. قفز من فوق الفـراش.. جـرى مـذعورًا.. اصطدم بالباب.. أمسك بـالمقبض قبـل أن يهـوي.. نهـض مرتاعًا.. واصل عدْوه إلى حجرته.. يتعثر في الأشياء.. وقف يلهث.. ارتكن على مكتبه.. وأخذ يهذي بصوت غريب:

- غدًا تنمحـي الكآبـة.. وينكـشح الظـلام.. سـتدق ساعة الحائط معلنة عودة الماضي السعيد.. سـيدوي نفـير

عربتي، ويعلو فوق صخب الضحكات.. سأعود لأسحق الهامات.. وأطأ الرقاب.. وأرسل الذل والهوان.. غدًا يخضعون ويذعنون.. اليوم.. اليوم ميلادي..

شيء يطبق على صدره.. توقف عن هذيانه.. الرعب يزحف إلى قلبه.. اصطدمت عيناه بصورة أمه.. إنها تخرج من إطارها مكشرة عن أنيابها.. ملامحها تنطق بالشر المستطير.. هرول مذهولًا، وصوته يرن في الأطلال:

- الأشباح تطاردني.. سيزهقون روحي.. قتلت والدي.. وكيف أقتل الأشباح؟..

دخل حجرة والده.. أمسك بالجثة يهزها في جنون.

- بالله عليك أن تنطق.. ارحمني.. خذ بيدي.. أسترحمك أن تبعد الأشباح عني..

أنَّى للأموات أن تنطق.. أو تسعى لإنقاذ الأحياء.. انهالت يده تدق وجهه.. وأظافره تمزقه.. الصراخ.. الصراخ يملأ الآفاق.. واختلط الصراخ بجلبة الناس..

أشرق الضياء.. وفي دار المجذوبين.. وقف أحدهم.. وعلى وجهه ارتسم الذهول.. ترتفع ضحكاته.. وصرخاته كل حين.. يرفع يديه متحاشيًا شيئًا مجهولًا.. وقد اختلطت أمامه السعادة بالشقاء والفقر والثراء.. والليل والنهار.. فاقدًا كل شيء إلا أنفاسه التي تتردد برغمه.

* * *

أين أخفي الرماد؟

الليل الأسود بظلامه وأحزانه.. وهذه الليلة أشد عتمة.. أويت إلى فراشي.. ظللت لا أبصر سوى كتل الظلام.. السكون قاتل، والجمود مجنون.. كم الساعة الآن؟.. لعلها الواحدة بعد منتصف الليل.. أربع ساعات أسترحم النوم.. ويأبى.. كأنها أربع سنوات.. الصفير في أذني، والفحيح من حولي يرهباني.. إن هذا يحدث في ليلتي هذه.. بل تكرر أكثر من خمسين ليلة في غربتي.. بين الرمال والهضاب والتلال.. كأنها دهر.. لا أستطيع أن أبرح هذه البقعة.. لا بجسدي ولا بخيالي!.. فقد ضمتني إليها.. وقبضت خطاطيفها بعظامي.. سجين المقادير.. والحاجة!!

منذ ست ساعات.. في المدرسة.. كنت أهرول وأقفز.. و«حسن» عامل المدرسة الوحيد.. يقهقه بأعلى صوته.. يرمقني بنظرة دهشة غير مصدق.. ولكني لم أعره أدنى اهتمام.. والزملاء يضحكون ويتعجبون.. وظللت أجري وأتقافز.. والعرق يتصبب من كل جسدي.. ولا أعرف لماذا كنت أبدو على ذلك النحو..

واستمرت قفزاتي.. خلف سور المدرسة.. كنت أرى شبح الجبل يكبر ثم يصغر.. ويكبر ثم يصغر!.. أتحكم فيه وأسخر من ضخامته.. أستطيع أن أغمض عيني فيتلاشى.. ويتلاشى كل شيء! واستمر حسن يقهقه ويصرخ، بينما يشير ناحيتي.. وأيضًا، لم أحفل به..

بالأمس، كنت أغني بصوت أنكر من نهيق الحمير.. ومن حولي طلبتي يرشقونني بنظرات التعجب!.. وفي عيونهم حزن بريء..

يسكن معي فأر.. أو بالأحرى أنا الذي أسكن معه.. فهو الذي استقبلني منذ أتيت.. وأعلن عن وجوده منذ أطيح بي إلى هنا.. يشاركني طعامي.. وكل معيشتي.. لكنه ينفرد بقرض ملابسي.. ويعبث بكل ما يصادفه.. ويجري هنا وهناك.. وكأنني أسمعه يضحك.. إنني أخاف هذا الفأر ومن الفئران جميعًا.. ومن كل تافه حقير.. وما زال يقرض ملابسي بالصندوق.. تقلبت.. انبطحت على وجهي ويدي تحت الوسادة.. اصطدمت بورقة.. سحبتها.. اعتدلت.. الظلام جاثم على عيني فكيف أقرأ.. علبة الثقاب في سترتي.. قمت لأحضرها.. اصطدمت بأحد المقاعد فانقلب.. وكدت أنقلب معه.. تساندت على المنضدة المجاورة.. أحسست بشواربه تداعب قدمي.. فزعت.. لكنه أعتقني ليعود إلى قرض ملابسي.. اطمأن قلبي؛ لأنه بعيد عني.. أخرجت العلبة، وأخذت ورقة من تحت الوسادة.. أشعلتها وجلست أقرأ.. إنه خطاب أخيها.. قرأت سؤاله.. كادت تلسعني النار.. وعاد الظلام أشد حلكة.. رددت السؤال عدة مرات.. إنه يسألني عن موعد الخطبة.. سؤال وجيه وملحٌّ.. لكن متى بالفعل؟.. بل.. كيف؟.. وعلا صياحي:

- الخطبة.. إنها ستموت ليلة الزفاف..

لا ريب أنه حلم جميل.. وما هي إلا طيف.. وسرعان ما أفيق على صخرة الواقع الفولاذية.. سرعان ما أرتد إلى الحقيقة.. قطع هذياني صوتٌ:

- ما هذا؟!

وصوت آخر.. وجلبة خارج مسكني.. وصوت ثالث:

- لا شيء.. لا بد أن الأستاذ يحلم.. ولا يليق أن نسبب له الإزعاج.

أَصوتُ إنسانٍ ما سمعت؟!.. أَهنا تعيس الحظ مثلي؟! إننا معشر التعساء.. لفظتنا الدنيا إلى هذا الوادي السحيق.. وجهها آخر ما رأيت.. مع أني ما رأيت وجه الملاك.. لكنني أؤكد أنه أكثر جمالًا وبهاء وفتنة.. خفق قلبي لابتسامته.. ويا لها من ابتسامة! تلك التي تذكرني بالرحيل.. نعم.. إنها ابتسامة الوداع.. لحظتها رأيت الموت مخيمًا على محياها..

- ستموت.. وترحل إلى العالم الآخر.. إلى جنة الخلد دوني.. أجل.. فقد عشت معها أطول من عمري.. أطول وأبقى.. إنها بهاء الحياة ومنبع السحر فيها.. وهل.. هل أبكي على هذا الجسد المسجى؟.. وكيف تكون الحياة دونها؟!

لكني أسمع نهنهات آتية من أعماق قلب.. وآهات لا أعرف مصدرها.. لا أستطيع أن أرى الملائكة، ولكنهم حول جسدها الطاهر.. يبكون من أجلي.. أتحدى الأيام والنسيان أن يمحواها من ذاكرتي.. أتحداهما على ألا يرن صوتها العذب في سمعي.. وأتحدى الزمن أن ينتزعها من مشاعري.. وأعاهدها على أن تهتف بها جميع نبضات قلبي.. أشعلت ثقابًا آخر.. أنغام حالمة تتردد.. تتصاعد.. تتباعد.. تتلاشى.. وضعت يدي تحت الوسادة.. تحسست هنا وهناك.. دق قلبي بعنف.. قذفت بالوسادة جانبًا.

سألت نفسي:

- أين الورقة؟! أين اللوحة؟.. أين؟؟!

بحثت وفتشت.. أشعلت أعوادًا.. انقلبت وانكفأت.. أشعر بالألم.. تأملت بقايا الورقة المحترقة.. إنها هي.. لقد احترقت.. أحرقتها بيدي.. قتلتها وأمست رمادًا.. وقمت من فوري ألمُّ أشلاءها حتى لا تذروها النسمات.. أو يتهادى الفأر في الاستهزاء بي فيعبث بالرماد.. جمعته..

وكانت حيرتي.. فأين أُخفي الرماد؟.. أين أُخفي الرماد؟؟.. أين أدفن الأشلاء؟.. وبعد.. أما لها من ذكرى؟!.. تذكرت خصلة شعرها التي وهبتْها لي.. جذبت حقيبتي من تحت سريري.. فتحتها.. تحسست في جيوبها.. وحمدًا لله فقد وجدتها.. أمسكتها بكلتا يداي فسقط الرماد.. انتفضت فسقطت الخصلة.. البقية الباقية.. جعلت أفتش عنها في الظلام، فقد فرغت علبة الثقاب.. أمسكت ذيل الفأر، فارتج قلبي.. هرولت.. خرجت من المسكن أصرخ.. ومرة أخرى علا صياحي:

- انتظر أيها العنيد اللعين.. انتظر أيها الماكر الفاجر.. سأتبعك أينما ذهبت.. ألا تدع لي الذكرى الوحيدة؟

يا لتعاستي وقد أضناني السباق!.. سحقتني الهزيمة.. جلست على صخرة أندب حظي.. وأصررت على أن أموت في هذا المكان.. في هذه البقعة النائية.

وبعد لحظات أو ساعات لا أذكر.. أحسست بيد تجذبني.. وصوت:

- الأتوبيس يا أستاذ.. أنسيت يوم السفر؟!! قم فسوف أحمل حقائبك!!..

وتمتمت:

- إلى أين؟؟.. إلى من؟؟..

وكيف أذهب؟ كيف؟! وأدع ذكراي لهذا التافه يعبث بها.. ونظرت إلى هذا الشيء، وقلت له:

- ألم تصادف فأرًا يحمل ذكرى ويعبث بها؟..

ولم أسمع الجواب.. وقلت أيضًا:

- اذهب.. فلن أسافر.. سأموت هنا مع الذكرى..

* * *

تحت المطر

يطاردها بإصرار منذ أكثر من عام.. تبدأ المطاردة صباحًا في الشارع الكبير.. في التوقيت نفسه.. ومن المكان نفسه حتى محطة الأتوبيس.. مسافة غير قصيرة.. العجيب أنه لا يعاكسها بحركة.. ولا يضايقها بكلمة.. ولا يقترب منها.. بل يتتبعها كالمسحور.. في المحطة، عيناه عليها.. نظراته جميعًا لها.. ينتظر ويتمنى لو يطول الانتظار.. أو ليذهب الأتوبيس فلا يأتي.. لم يتخلَّ يومًا.. إلا الإجازات.. لم يتأخر مرة.. والأكثر عجبًا أنه لم يركب معها مرة واحدة!..

بقدر ما تمقته كانت تعشق مطاردته وملاحقته إياها.. وهذا الإصرار يذكرها أنها ما زالت على قدر من الجمال.. وأن هناك مَن يتتبعها.. وعلى سبيل المثال هذا الشاب.. هذا إن لم يكن يسهر الليالي من أجلها.. فعلى الأقل تحتل جزءًا من تفكيره..

خرجت إلى الشارع الكبير.. لم تلتفت إلى مكانه.. فإنها تثق بوجوده.. تخطو.. في هذه اللحظة يتأملها.. لعله يبتسم.. ولعل قلبه يدق مسرعًا.. تعلم أنه على مسافة منها تجنبه عتاب الآخرين.. أو تعليق المارة.. لكن.. لا ريب أن هناك مَن وقف على أمره.. لذا، حرصت على استقامة نظراتها حتى لا تلوك سمعتها الألسنةُ.. وعادت التساؤلات

تتدفق في رأسها.. ماذا يريد؟.. ولماذا يقصدها دون بنات جنسها.. والطرقات تزدحم بهن.. ويتفوقن عليها في كل شيء.. كل شيء!.. في المحطة.. التقت عيناهما مرة.. مصادفة على الأقل من ناحيتها.. كانت نظرة خاطفة، تمنت لو طالت.. لا لرؤية ملامحه.. بل لتقف على ما يقلق بالها نهارًا.. وخلال شوط طويل من الليل:

- لو أكاشف إحدى زميلاتي.. ولكن كيف.. كيف؟؟

لقد حاولت من أجل إفراغ شحنات همها أو لتفيد برأي.. ولم تفلح.. سِمتُها القلق إلا أن طرفًا من السعادة يتردد في حناياها.. والسبب صاحب الرحلة اليومية..

- لكأنني على قدر من الجاذبية.. في عينيه..

ما زالت تمقته.. شعور غامض لا تدري سببه.. نسمة هواء تلفح وجهها، فتوقظها من غفلتها.. تعيد خصلة شعرها.. تجمع طرف معطفها البالي.. حثت الخطى حيث المحطة.. وقفت مع الأفراد القليلين.. نسمة أخرى أتت.. استمرت.. اشتدت.. تنقلب ريحًا.. حانت منها التفاتة حولها.. الوجوه تتزايد.. هو من بينهم عيناه عليها.. نظراته لها.. لا يرى إلا هي وكأنها الوحيدة تحت المظلة!.. لوت عنقها في ناحية أخرى، بينما أطلت من ملامحها ابتسامة خفيفة.. عذبة.. تجهمت فجأة!.. النوافذ تصطك من أثر الرياح.. أغصان الشجر تبدو كالمراوح.. حفيف

الأوراق يعلـو.. لحـق بـالواقفين المَلـلُ.. فقـد تـأخر الأتوبيس.. الأشياء تتلون بلون الرمال والتراب.. بدت الدنيا شاحبة.. عيناه تراقبانها، وقد غشى وجهه الشرودُ!

تنطلق العاصفة، ويختفي قـرص الـشمس.. تنظـر إلى صفحة السماء.. السحب شديدة السواد..

أصوات الرياح تصم الآذان.. خصلات الشعر تتطاير في عصبية على الوجوه والأعناق.. الرياح تعوي.. تكتسح ما على الأرض من أتربة وأوراق.. المارة يسرعون كـلٌّ إلى وجهتـه.. قـصد الكثيرون المظلـة.. الطيـور في الفـضاء أصابها الهلع، فولت حيث أعشاشها.. اشتد الزحام تحت المظلة.. الأجساد تتلاحم اتقاء شر العاصفة.. الحيرة تطل مـن كـل العيـون.. وصـاحبنا بـين اللحـم تـبرق عينـاه بالأمل.. الضالة تدور برأسها.. يتسع البريـق في عينيـه.. يزحف إلى صدره، فتزداد نبضات قلبه على الأثـر.. تحـت المظلة تجتمع المتناقضات، وتتلاقى المتنافرات.. عيون قلقة وأخرى خائفة ترهب الزحام.. رقاب مـشرئبة.. نفـوس ضعيفة تعمل في الخفاء!.. والأتـوبيس أمـل كبـير يـراود الكثير.. ولكنه يتأبى ويتأفف.. تحت المظلة - أيضًا - من يتوقع مجيئه.. ومن يتمنى ألا يأتي!

عـصفت العاصـفة.. هاجـت وتـذمرت.. سُـمع لهـا أصوات متباينة.. تلونت الدنيا بلون كالح كئيـب.. ومـا من مأوى إلا المظلـة.. انـدفعت الأمطـار تـدر بـسخاء..

وما زالت الناس تتسابق من كل فج إلى المظلة.. وكل أمنيته أن يجد مكانًا بين الزحام.. وينزوي الأمل في مجيء الأتوبيس.. والسماء ترسل مياهها مدرارًا.. وقصف الرعد يطغى على كل الأصوات.. ويرسل الرهبة.. وبرق السماء يبعث الذعر.. ويسقط المطر ويسقط.. المياه تنزلق لتصنع جداول صغيرة في أرض الشارع.. تتجمع في برك صغيرة أيضًا..

لناس تحت المظلة كتلة تموج من الخارج.. في الداخل المدفون ثورة.. وصاحبتنا تصارع الأجساد.. وعلى وجهها حل الذعر.. وهو.. لها بالمرصاد!.. نائيًا بنفسه كمن لا يدري حقيقة الأمر.. تعبر الألسن، فقد اشتد الموقف قتامة.. يعلو منسوب المياه، فتغطي الأقدام المتململة.. والبرودة تسري في الأعضاء.. لترتجف.. وتصطك لأثرها الأسنان المطبقة.. الظلام يلون النهار.. والمياه تخر من السماء وتنزلق من فوق سطح المظلة على كتلة البشر.. رعب آخر وخطر جديد!.. كلٌّ يُعمِل تفكيره.. كيف الهروب؟.. أُغلقت أبواب المنازل على مَن بداخلها.. سكتت الأصوات إلا من أصوات ناس المظلة.. وصوت سقوط المياه على المياه.. وهزيم الرعد.. فجأة، انسلخ أحدهم يجري في المياه.. يتقافز في حماس ويهتف:

- ماذا أنتظر؟! لقد تركت زوجتي تعاني الحمى..

كانت تلك المسيرة بداية لمسيرات مثيلة.. وتتكسر كتلة البشر.. فالأفراد يندفعون كالزوارق.. تطرقع

أقدامهم في المياه.. أو تغوص في الأوحال.. من أجل نفوسهم أو من أجل آخرين.. أخيرًا.. استيقظ صاحبنا من سكرته.. فوجئ بها تنظر إليه.. الرهبة تملؤها.. وملامحها.. ما زالت تنطق بالمقت الشديد بقدر ما هي محتاجة إليه!.. فقد هرولوا جميعًا إلا هو.. وهي.. عقد الجبن ساقيها أن تنطلقا.. شل الحب تفكيره.. أفاق على صوتها.. لم يدر ماذا تقول.. لكنه يعرف ما تريد.. كررت نداءها.. نظر من حوله ليرى الحقيقة ماثلة أمامه.. عد نفسه في جنة.. والصوت لملاك.. ولعله رغب أن ينتشي بأنغام الصوت.. نظر في كل ناحية.. ولسان حاله يقول:

- لا بأس.

اندفع نحوها.. لمسها.. بل.. بل أمسك يدها.. لم يشعر بدفء يدها.. بل استشعر شيئًا غريبًا يبعث النشوة.. جعل يجرها وراءه.. ما زالت تلتمع في عينيه آثار الدهشة.. التفت ليراها.. ليتحقق منها.. ابتسم.. إنها هي.. كما عهدها.. لا تحبه.. بل تمقته.. فقط تحتاج إليه.. لوى شفتيه.. ترنح حين تعثر قدمها بشيء على الأرض.. جذبها إليه.. لف يده حول خصرها ليحميها من الوقوع.. سارا جنبًا إلى جنب.. الدنيا ما زالت تزمجر وتزأر.. وترسل هواء باردًا محملًا بمياه ثائرة تلسع.. أرسلت طرفها بعيدًا.. دارت به.. استقر عليه.. جعلت تتفرس كل لمحة من ملامحه.. كادت تضحك وتضحك.. ها هي الآن بين

يديه.. مستحيل يبدو حقيقة!.. تحتمي به ليست متقززة.. فهو طوق النجاة لديها.. فالطريق ما زال طويلًا.. المياه سياط على وجوه المباني والمنشآت.. الرعد والبرق على أشدهما.. معركة سماوية ترسل لظاها على الأرض.. شيء يجذبها نحوه.. أقوى من الخوف.. تنقل المياه أخبار العاصفة.. غصون أشجار وأوراق لعلها ذكريات.. الطبيعة تصيح وتصخب.. لكنهما صامتان.. عاد يرنو إليها.. تحت معطفها.. لمح رداءها الأسود.. ترتدي الغوامق صيفًا وشتاء.. لِمَ تصر على هذه الألوان الداكنة.. ولِمَ انسم وجهها بالحزن سبب تعلقه بها.. لو يستطيع أن يبدل أحزانها.. كيف؟.. كيف وهي التي تبغضه؟! يكفي أنها بجانبه.. تحتمي به من غائلة الطبيعة.. لم يكن يحلم بواقعة.. لكنها الأقدار.. لعب لسانه في فمه.. كاد يقطع الصمت.. قرأ ازدراءها، فسكت عن الكلام.. بوُده أن يحكي لها عن مشاعره.. وعن حياته.. وعن.. إنها فرصته الوحيدة.. تبدلت نظرة الازدراء في عينيها إلى نظرة تأمل.. نظر إليها بعينين ودودتين.. طالت النظرة.. رأت الدموع تتألق في عينيه.. وعلى شفتيه ارتسم شبح ابتسامة.. طال تأملها.. لم تر دعوة الشيطان في نظرته.. وهي بين يديه.. نظرت في ناحية أخرى.. تمنت لو طالت النظرة أكثر، فتقف على دواعي حيرتها.. انمحت من عينيها نظرات

الاحتقار.. عمل فكرها.. ضغط على يدها برغمه.. الأفكار في عقلها تختلط وتتضارب.

سكنت عينا السماء من البرق.. تلاشى صوت الرعد وصفت السماء.. أمسى المكان ساكنًا إلا من صوت قدميها.. عاد ينظر إليها.. شعرها ملتصق على فروة رأسها وجبهتها وجيدها.. كم هي جميلة.. رائعة.. غصن يميل في حنان.. تأملته فأثار شجونها.. وشردت.. رأى دموعها على خديها كحبات اللؤلؤ.. لو يستطيع أن يمسح هذه الدموع.. فجأة رأت شيئًا يتقافز نحوها.. صرخت.. انكفأت في أحضانه.. ابتعد الشيء حين قال:

- إنه فأر صغير أغرته حلاوة الحياة.. لكنه مسكين، فالموت له أينما ذهب.. وإلا..

تأثرت لصوته وعبارته.. لكم شعرت بدفء أحضانه!.. لاحت على وجهها ابتسامة.. لم تفلح في إخفاء أحزانها.. وهو لم يستطع أن يمنع يده من أن تضغط على كتفها.

ظلا سائريْن من حارة إلى أخرى يقاومان الأوحال.. يقتربان من بيتها.. والدليل لهفتها وسرعتها.. داخله يئن.. روحه تكاد تفارقه.. أصبحا في مدخل زقاق.. في الشرفة، يقف ثلاثة أطفال.. يهللون.. ترتفع أياديهم وتعلو أصواتهم الفرحة.. على وجهها قرأ السعادة.. في عينيها قرأ

وقرأ.. نقل بصره بين ردائها الأسود والأطفال في الشرفة.. تخلصت من يديه.. هرولت إلى باب البيت.. دخلته دون أن تودعه.. لعلها خشيت أن يرى دموعها الغزيرة..

في الصباح، لمحته هو هو.. يمارس هوايته.. وفي قلبها، تبدل المقت شعورًا آخر.

هي... وهي!

أولجت المفتاح في باب شقتها.. اندفعت إلى الداخل كالهاربة.. دفعت الباب بقدمها فانغلق.. ارتكنت على الحائط وهي تلهث.. كأنما كانت تعدو.. وقد أوشكت على البكاء، وفمها ينفث حريقًا.. استطاعت أن تلتقط أنفاسها.. خطت في إعياء.. رمت كراسات تحضيرها على منضدة صغيرة بالصالة.. وقفت.. قطع الأثاث ترنو إليها.. تعانقها في شوق.. وتتأملها في تأثر.. بين الجدران تحس بكيانها.. وآدميتها.. جلست.. تتنفس في أمان.. كل شيء صامت.. هادئ.. لا يضيق بدمامتها.. وليس هناك مَن يؤذي مشاعرها بنظرة ساخرة.. أو يلدغها بكلمة قاسية.. الجدران أكثر رحابة.. عالم يأنس بها، ويجدد ميثاق الحب معها..

اتجهتْ إليها.. فهي الوحيدة التي تبقت لها.. تنصت إليها دون تعليق.. لا تتململ أو تتألم.. لا تتقزز أو تنفر.. لا تقاطعها.. بل تتسمع نجواها ورغيها.. وتتأمل شجونها في هدوء.. إلا أنها تبغضها.. فدائمًا تطلعها على الحقيقة.. ويا لها من حقيقة!.. هي الوحيدة التي تتعرى أمامها.. تعرف أسرارها، وتقرأ مكنونها.. وتعكس ما يتردد في أعماقها.. جعلت تتفرس فيها.. فم واسع وأنف مفلطح يأكل وجهها.. عينان ضيقتان باكيتان، وجبهة عالية،

وفكّان عريضان.. و... و.. يا لها من صورة! هي شغلها الشاغل.. وهي مصدر خوفها بالنهار، ومبعث همها بالليل.. تعهدها بألوان الزينة.. ولا فائدة.. كلها زائفة.. أو كأن لها وظيفة أخرى غير التزين وإضافة الجمال..

ها هي تتأمل جسدها.. الصدر متوثب في ثورة.. والخصر نحيل.. والقد ميسان.. والساقان ممتلئتان.. والردفان ساكنان في قنوط.. أنوثة فياضة طاغية.. متعطلة متعطشة.. ضربت الأرض بقدمها.. عادت تنظر إليها.. سرت الرعدة في جسدها.. لقد بهت لونها، وكلحت بشرتها.. ولم تفلح الدهانات في إخفاء شحوبها.. وكيف لا يشحب لونها، ولا ترتعد فرائصها والدمامة تطاردها وتسقيها الهوان أنى تكون.. سهمت بينما تجمدت نظرتها على لا شيء.. امتدت أصابعها تعبث في أزرار البلوزة فتحتها.. بان القميص الداخلي.. أحمر ناريًا.. حانت منها التفاتة إلى النافذة المفتوحة. خفّت إليها وأغلقتها.. عادت إلى جمهورها الوحيد.. البغيض.. تتفحص بعين الخبير.. أو بعين رجل.. تأوهت.. ارتعشت.. ابتسمت في خفر.. عاد قلبها يدق أشد عنفًا.. أصاخت السمع.. خالت طرقات خفيفة على الباب.. إنه هو.. لقد أثار كوامنها من النافذة المواجهة.. وقد وقفت على رغبته.. وشت بها عيناه عندما التقت به مصادفة.. وها هو قد أتى.. الوحدة كئيبة.. موحشة.. مفزعة.. سألتها أن تفتح..

رجعت بذاكرتها.. منذ سنوات، جاء تعيينها بمدرسة بنات.. كان منتهى أملها أن تظفر برجل.. فقد سئمت الوحدة بعد أن رحل الجميع عنها.. أبواها إلى العالم الآخر.. وإخوتها كل إلى عشه.. إلا هي.. كانت أيامها تدرس بالجامعة.. وقد عولت التأخير على ذلك.. رغم ارتياب أحاسيسها.. غدًا تنتهي دراستها.. لتمتد إليها الأيادي من كل صوب وكل حدب.. ستنتقي مَن يأسر قلبها.. ويأخذ لبها..

- سأنتقي أكثرهم وسامة ورجولة.. وأوفرهم حنانًا.. ويكون لي الأم.. والأب.. والأهل.. والخلان..

كم فرحت حين صادفت الكثير من الزملاء خارج القفص الذهبي.. جالب السعادة.. منت نفسها بدنو الأمل.. انفردت بهذا مرة.. وذاك أخرى.. بهم جميعًا.. كررت وكررت.. فشلت.. جعلت تحدثها بلا كلام.. تتأملها.. جمعت صور زميلاتها.. فردتهن جميعهن أمامها.. وضعت صورتها بينهن.. سهرت الليالي تقارن.. شتان.. المقارنة صعبة.. صعبة.. ولكنها تتفوق عليهن ثقافة ولباقة وعلمًا.. وذكاء.. ولا يجدن حرجًا في الاعتراف بذلك.. والرجال أيضًا.. وتبكي في لوعة.. الجميع يعاملنها كزميلة مثقفة ومتمكنة.. ويتقرَّبون إليها للفائدة العقلية والعلمية.. اقتصرت الأحاديث حول الدراسة ومتعلقاتها.. لم تتطرق بالمرة حول الحب والقلب.. وإن عرجت إليه.. تنتهز أول فرصة «للزوغان»..

احتقرت الكتب والمراجع.. هجرتها فعلَتْها الأتربة، وكساها الجمود.. طرحت كل ذلك جانبًا.. لتلجأ إلى أنواع الدهانات والصبغات.. جعلت تهرول خلف أجودها وأحدثها.. وآخر صيحات «الموضات» من الملابس والأزياء.. تبدل وتغير.. تبتكر وتخترع.. وأيضًا بلا جدوى.. تعبت..

- ملعون هذا الجنس الخشن.. لقد عموا أجمعين..

وكأن ما تبديه وما تقدم عليه يباعد بينها وبينهم.. ويضيف إلى الهوة عمقًا وسحقًا.. مُنِيتْ كل مساعيها بالخيبة.. انهزمت أنوثتها.. وإنها لكارثة.. وعادت تبث لواعجها وعذاب مصيبتها.. دومًا تلجأ إليها وما زالت تبغضها..

طوحت بها الذكريات حيث أيام طفولتها.. ويا لها من ذكريات!.. كانت النساء تعلقن بلا حرج على أسباب دمامتها.. لم يرعين مشاعرها، وأثرت التعليقات في نفسها وفكرها.. ليس إلا لأنها طفلة لا تعي شيئًا.. وكأن الأطفال بلا عقول.. وبلا أحاسيس.. وأمها.. لم تسكت مرة عن الذود عنها.. لم تنس ما تصنعه الكلمات في ملامحها الطيبة.. وما تعانيه لتجد مخرجًا لورطتها.. وحديثها وفلسفتها:

- الجمال الحقيقي هو جمال الطباع.. كما أن ابنتي متفوقة في دراستها.. إنها من الأوائل.. والأيام كفيلة

بإثبات جمال الروح.. إنه يأخذ باللب ويبعث النشوة ويستهين بأزمات الحياة.. و..

وتعود الأم لتفحص وجه زائرتها.. والثقة والجذل يملآن صدرها.. لقد استطاعت أن تستخلص مبررًا لكل نظرة اشمئزاز.. وأن تصدَّ كل تعليق مؤلم يرشق ابنتها.. وبقدر إيمان الأم بما تقول.. إلا أنها كانت تتمنى في نفسها.. لو ترفل ابنتها في ثوب فضفاض من الجمال والفتنة..

ما زالت تسمع صوت أمها برتابته الحنون ورعشاته المحببة.. كانت الكلمات تخرج باكية.. يحوطها المرارة والألم.. تدمي لها القلوب.. وكانت مشكلة الأم التي تنمو وتتجسد ولا تملك إلا الدفاع بالكلام..

كانت تلتقط تلك العبارات بأذن غير واعية.. إلا أنها كانت تتسرب إلى عقلها الباطن.. وما تلبث أن تتركز وتثقل.. وتسكن في القرار..

- ليتني ما تفوقت.. مقابل مسحة من الجمال..

وكانت تلك التعليقات بمثابة النفخ في نيران حماسها.. لتتقد وتستعر جذوتها.. ولتنكبَّ على كتبها تنهل منها بنهم.. علَّها تكون بمثابة التعويض بما تملكه لما لا تملكه.. إذا كان للعلم والعقل والروح جمال كما تردد أمها..

حانت منها التفاتة إلى صورة أمها.. وجهت إليها نظرات الحب واللهفة واللوعة.. بكت وانتحبت.. ظلت هكذا وقتًا..

- لعنة الله على مَن تشدقن بصنع الله في خلقي.. لقد ألحدن حين عِبْنَ عليه.. وحين عِبْنَ عليَّ.. فما جنايتي؟!.. وما بيدي إلا أن أطلب لهن الغفران.. فقد رغون بلا قصد.. ذبحنني ولم يتخيلن ما سيكون..

لقد هجر الزملاء شبكتها.. ضاقت بهم ذرعًا.. لم تجد بدًّا من التطلع إلى خارج نطاق العمل.. وأيضًا، هناك مَن يقدر عقلها ولبقاتها.. بعيدًا عن هدفها.. وزِيدَ بمن يلقي على مسمعها ما يؤذي وما يجرح.. ومن يريدها لتحقيق رغبة..

- لقد أصيبوا بالتخلف والغباء.. فكلٌّ زائل.. والروح خالدة..

إن أهدافهم جميعًا زهيدة.. رخيصة.. مبتورة.. دست أحزانها في أعماقها.. أصابها الإحباط.. والقنوط.. لقد تساقطت القيم والمعاني السامية.. انتحر الطموح.. تعفنت الآمال وعطبت.. وعبقت الجو برائحة عفنة.. كريهة.. خانقة.. كرهت الرجال جميعًا.. وامتدت كراهيتها إلى بنات جنسها.. وباتت تصب جامَّ غضبها فوق رؤوس مَن تحت إمرتها من الطالبات.. كرهنها.. وعلى الأخص الجميلات.. وكان ما يقلب حالها أن تلمح «دبلة خطوبة» في إصبع إحداهن.. تبرق الدبلة فتستشعر الإغاظة والشماتة.. تنتفض وتقرض أنيابها وتنقلب سحنتها.. وكلهن يعرفن السبب.. وتسأل من بين أسنانها:

- «دبلة خطوبة» هذه؟

وبحياء يشوبه الخوف ترد الطالبة بالإيجاب..

- منذ متى؟

- منذ أول أمس.

- ألهذا تغيبتِ اليومين الماضيين؟

- أجل..

- ووظيفة العريس؟

- طبيب.. طبيب أسنان.

وتبتلع أبلة «سلوى» لعابها الممرور.. ويرتعش صوتها وتستطرد:

- ولكنك ما زلت صغيرة.. و.. الزواج مسؤولية خطيرة..

- سيكون الزفاف بعد دخولي الجامعة..

- ترتشف«الأبلة» ريقها قائلة في جرأة:

- هل يحبك؟..

وتخفي الفتاة محياها خجلًا.. ولا ترد عليها لتضيف بوقاحة:

- و.. وكيف أتى؟..

وتتلاقى أعين الطالبات.. تنظر الزميلة إليهن مستنجدة.. وتهز رأسها ولا تدري بم ترد..

وكم تكرر ذلك الموقف وما يتبعه من تحقيق جريء.. بل وأكثر.. وكانت تقف منهن مواقف معادية وترى في كل منهن غريمتها.. وكم كانت تغالط نفسها.. وتبث سموم أفكارها.. بأن الزواج عنصر على هامش الحياة..

وتصفه بأنه عبودية وأسر.. وقيد لا يتحطم.. بل تزداد صلابته بمرور الأيام.. وأن القوي مَن يدوس عليه.. وينأى بنفسه عنه.. وما تلبث أن تتسع حدقتا عينيها ناظرة في الفضاء.. لتهتف وكأنها على خشبة مسرح:

- حري بالمرء أن يعيش طائرًا.. يلثم الأزهار من كل الحدائق والجنان.. يقفز هنا ويحلق هناك.. يروح ويغدو في حرية.. ينطلق في أي اتجاه وعلى أي نحو كما يحلو له.. ويعيش في عشه آمنًا يستشعر الحبور بنسيم الحرية الصافي..

ويمتد النقاش والفتيات قد ازددن جرأة على مدى الأحاديث.. وتعدم مقاومة الحقيقة.. عندئذ تتذكر سلطانها.. فيرتفع صوتها بلاذع السباب والصفات.. ولا تتورع أن تبصق على وجوههن وتصفع خدودهن.. وتبدو لهن إنسانة مخبولة غريبة.. لا تطاق..

- الويل لمن تقع في براثني.. و.. وسحقًا لأولئك المتكبرات المغرورات..

وبين الجدران تبكي وتبكي.. وتنظر إليها.. وتبدو وقد ازدادت كآبة.. وقد دبت الشيخوخة في ملامحها.. وبدا السعار في عينيها وأسنانها.

وما زالت تتوهم أنها تسمع النقرات الخافتة على الباب والبرد يسري في أعضائها.. ومن بين رجفتها تكرر لها السؤال.. هل تفتح الباب؟..

* * *

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
تقديم	٥
الساعة السادسة	٧
لقاء بعد منتصف الليل	١٣
تجربة	٢١
أنشودة العصفور	٢٥
بائعة الشهد	٣٥
صفقة	٤٧
غريب جدًّا	٥٣
جرفه التيار	٦١
ليته معنا	٦٧
فستان العيد	٧٥
مأساتها	٨١
كومة العظام	٩٧
أين أخفي الرماد؟	١٠٥
تحت المطر	١٠٩
هي.. وهي!	١١٧
الفهرس	١٢٥